

# التشيعة والعراق

وصلاته بالمرجعية وايران

مرسول جعفر يان





# فهرس

## الفصل الأول

### نشأة التشيع في العراق / ٩

١٢	العراق في الحقبة الصفوية — العثمانية
١٦	هجرة القبائل العربية من الجزيرة العربية إلى العراق .....
١٧	القبائل العراقية والتشيع.
٢٠	استيطان العشائر ورواج التشيع
٢٦	التواصل المذهبي بين جنوب ايران وجنوب العراق
٢٧	البصرة مركز رئيس للتشيع في العراق
٢٩	مركزية العتبات بالنسبة للشيعة (ق ١٨)
٣٠	عدم نجاح الشيعة في التوسع شمالاً .....
٣٢	وثائق عثمانية تتضمن عمارية التشيع .....

## الفصل الثاني

### الجغرافية البشرية والسياسية للشيعَة في العراق / ٣٧

٤٣	عدد الشيعة حسب إحصاء عام ١٩١٩ - ١٩٢٠ م
٤٥	إحصاء عام ١٩٤٧
٤٧	الجغرافية السياسية لشيعة العراق.....

## الفصل الثالث

### تنامي حضور الإيرانيين في العراق مطلع القرن العشرين / ٥٥

٥٩	الإيرانيون المقيمون في العراق وحقوقهم القضائية
٦١	مسألة التبعية.....
٦٥	التخلي عن التبعية الإيرانية من قبل بعض الإيرانيين.....
٦٧	الأسر العربية والفارسية
٦٨	المدارس الإيرانية في العراق
٧١	دفاع الدولة الإيرانية عن شيعة العراق

## الفصل الرابع

### المرجعية الشيعية في العراق وإيران / ٧٣

٧٥	المرجعية العامة
٧٨ .....	المرجعية والقضايا القومية....

٨٠	التركيب القومي لحوزتي النحف وكربلاء.....
٨٣	أهم مراجع التقليد في فترة الميمنة العثمانية على العراق.....
٨٥	الشيخ مرتضى الأنصاري :.....
٨٦	الميرزا الشيرازي (م\١٣١٢ هـ)
٨٩	الميرزا محمد تقي الشيرازي (م\١٣٣٩ هـ) :.....
٨٩	لميرزا فتح الله شيخ الشريعة الأصفهاني (م\١٣٣٩ هـ).....
٩٠	مراجع النحف والحكومة الايرنية
٩٢	الشيعة ما بين العثمانيين والآنجليز
٩٤	تأييد علماء النحف لمشاريع الوحدة الاسلامية.....
٩٦	المرحلة الثانية الملكية
١٠١	المرجعية الشيعية ...
١٠٩	انتقال المرجعية الى ايران.....

## الفصل الخامس

### المرجعية في العراق وتحديات العصر / ١١١

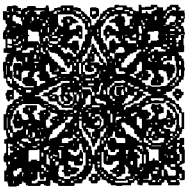
١١٣	عودة للمرجعية الى العراق آية الله الحكيم
١١٣.....	أ — المشاركة الفاعلة للشيعة العرب في حوزة النحف..
١١٩.....	ب — السياسة الطائفية في العراق المعاصر
١٢٨.....	ج آية الله الحكيم والحكومة الإيرانية.....
١٣٣.....	تسفير الإيرانيين من العراق .....

١٣٧	تأسيس حزب الدعوة وبروز الشيعة في العراق
١٤٨...	مرجعية آية الله الخوئي .....
١٥٤...	البحث وفكرة إيجاد مرجعية عربية
١٦٤...	ايران والعراق خلال العقود الثلاثة الأخيرة .....
١٦٧.....	عراق ما بعد صدام والمرجعية الشيعية
١٨٢.....	مصادر الكتاب .....



# الفصل الأول

---



## نشأة التشيع في العراق



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

سبق ظهور التشيع في العراق ظهوره في أي نقطة أخرى من العالم الإسلامي، بحيث يمكن القول ان التشيع تبلور أساساً في البيئة الكوفية، ومن ثم انتشر إلى الخارج. وقد انتقل هذا التشيع من الكوفة إلى بغداد أبان القرنين الثاني والثالث الهجري يتمدد على الأنحاء الاخرى، خصوصاً في بغداد والمناطق الوسطى من العراق في القرن الرابع عقيب ازدياد اهمية مدن الوسط مثل كربلاء والنجف والكاظمية، وبسبب الدعم الذي قدمه البويهيون للمذهب الشيعي حينها.

لقد كان جانب الكرخ محلة شيعية فيما هو اليوم محلٌ لتواجد السنة، بينما كانت الرصافة منطقة مغلقة على السنة وهي اليوم ذات غالبية شيعية. واستمر التشيع بحضوره القوي في العراق، وظل الفكر الشيعي ينتهل من ثدى النجف ومن بعدها الحلة. وشهد التاريخ العراقي في القرن الخامس وما بعده موجات هجرة للطلاب من إيران وحلب وجبل عامل في لبنان بغية الدراسة الدينية في الحواضر العلمية الشيعية في العراق، فكان لهؤلاء المهاجرين أثر في تعزيز الوجود الشيعي في العراق من جهة، وساعد من جهة أخرى على نشر التشيع إلى المناطق التي انطلقت منها حملات الهجرة.

ان التشيع في العراق هو أشد صور التشيع أصالة وتجزراً، ويتزامن من حيث



القدم مع التشيع الذي ظهر في قم في القرنين الثالث والرابع، وقد ألقى بظلاله الوارفة على التشيع في مناطق جبل عامل وحلب وإيران، بقدر ما يتعلق الأمر بالأخيرة فإن التشيع الأصيل الذي تبلورت أركانه ودعائمه في بغداد والنجف والحلة أثر في التشيع الإيراني على عدة مراحل:

١ - تأثير تشيع القبيلة الأشعرية التي استوطنت قم من القرن الثاني إلى الثامن.

٢ - تأثير تشيع بغداد (وبعدها النجف) على إيران اعتباراً من القرنين الخامس والسادس إلى القرنين الحادي والثاني عشر.

٣ - تأثير المدرسة الحلية على الإيرانيين في القرنين السابع والثامن إلى القرنين الثالث والرابع عشر.

٤ - تأثير مدرسة النجف وجبل عامل على الوضع الشيعي في إيران بين القرنين العاشر والسادس عشر.<sup>(١)</sup>

وكان التوسع الشيعي في العراق وما زال ينطلق عادة من الوسط باتجاه الجنوب إلى جنوبي البلاد مستوعباً بذلك المدن والقصبات التي تشكل مجموعها عراق الأمس واليوم.

### العراق في الحقبة الصفوية - العثمانية

بدءاً من القرن العاشر الهجري، بات العراق منطقة الحد الفاصل بين نفوذ أهم قوتين عظميين سياسيتين في العالم الإسلامي آنذاك؛ وهما الدولة العثمانية وهو

(١) انظر ما أردناه، حول هذا الموضوع في كتابنا (تاريخ التشيع في إيران)، ص ٤٧٥ وما بعدها.

الطرف الأقوى في المعادلة والدولة الصفوية الطرف الأقل قوة ونفوذاً والتي عجز العثمانيون عن إزاحتها نهائياً من الخارطة السياسية للشرق الإسلامي، برغم جدية المساعي التي بذلوها من أجل تحقيق هذا الهدف.

ونظراً لتشيع الصفويين، ظَلَّت عيونهم مشدودة إلى العتبات المقدسة في العراق، نجحوا مرتين في الاستيلاء على بغداد المرة الأولى من ٩١٤-٩٢٠هـ والثانية من ١٠٣١-١٠٤٨ هجرية. غير أن هذه المحاولات كانت وقتية ولم يكتب لها الدوام.<sup>(١)</sup> أما العثمانيون فكانوا يعتبرون أنفسهم أوصياء على التركمان، وبالتالي فإن بغداد تدخل في نطاق حقهم الطبيعي في حال ان الدولة العثمانية تبعد عن بغداد آلاف الكيلومترات.

وخلال المقطع التاريخي الممتد من القرن العاشر والحادي عشر إلى القرن الخامس والسادس عشر الميلادي، وبعيد هيمنة الأتراك على الأراضي الإيرانية، أصبحت آذربيجان مسرحاً للنزاع العثماني - الصفوي، فكان الصفويون لا يخفون رغبتهم في السيطرة على بغداد والعتبات المقدسة في العراق فيما يحاول العثمانيون الأمر ذاته، وصار هذا النزاع سبباً في جعل العراق قبلة اهتمام هاتين الدولتين. هذا في وقت لم يكن للعرب حينها أي نفوذ في المنطقة وقد مرت قرون عديدة على آخر حكومة لهم في هذا المكان. لقد أورد حسن العلوي استناداً إلى ما كتبه العزاوي في (تاريخ العراق بين احتلالين) ومصادر أخرى، قائمة طويلة بالحروب والمنازعات التي وقعت بين الطرفين المتنافسين في

غضون فترات زمنية مختلفة من عهد السلطان مراد إلى عهد نادر شاه وما أسفر عن هذه الحروب من حملات إبادة جماعية.<sup>(١)</sup>

وهذه الحملات كانت تشن في الغالب من قبل الجانب العثماني وبدافع من النزعة التوسعية التي طبعت سياسة السلطان سليم فيما أطلق عليه بالسياسة الشرقية.

ويوما بعد آخر ترسخت دعائم الوجود العثماني في العراق<sup>(٢)</sup>، وبطبيعة الحال كان الولاة والحكام من السنة، وأصبح الشيعة من ذلك الحين أقلية محكومة يُنظر إليها بعين الريبة على اعتبارها عدواً تقليدياً للحكم العثماني. وبالتالي علق هذا (العدو) آماله على الجارة إيران!

في هذه الحقبة عُرف التشيع بأنه تيار من الموالاة لإيران، بينما راح ينظر إلى التسنن باعتباره تياراً دينياً أو سياسياً موالياً للدولة العثمانية. مع ذلك، لم تفقد العتبات المقدسة أهميتها كمزارات دينية أو حواضر علمية للشيعة. وبالتأكيد ظل العثمانيون ينظرون إلى الوجود الصفوي نظرة ريبة طوال تلك الفترة والى حين زوال الدولة الصفوية، الأمر الذي انعكس سلباً على حجم التواصل والتأثير للتبادل بين إيران والأماكن المقدسة في العراق. إلا أن هذه الأماكن تحولت فيما بعد، وتحديداً أيام حكم نادر شاه وضموفه على علماء الشيعة ومحاربتهم

(١) العلوي : ٥٥-٥٦ .

(٢) كان المفهوم التاريخي السياسي للعراق ينطبق على المناطق الكائنة الى مائة كيلومتر من شمال بغداد باتجاه الجنوب حتى الوصول الى البصرة ، ولكن هذا المفهوم توسع بعد الحرب العالمية الاولى ليشمل كردستان .

للحوزات العلمية في أصفهان وسائر مدن إيران، إلى مراكز لاجتذاب المهاجرين من علماء إيران وطلاب العلوم الدينية فيها. وعادت النجف وكربلاء مركز استقطاب ديني للطلاب والعلماء الإيرانيين، الأمر الذي شجع على هجرة الكثيرين منهم إلى العراق بقصد اكتساب العلم وزيارة المراقد، فكان هذا عنصراً آخر من عناصر التأثير المتبادل على المستوى المذهبي بين كل من العراق وإيران.

ان التحول الذي طرأ أيام الدولة الصفوية على علاقة مراجع الدين الشيعة بالدولة ومكانتهم لديها أسفر تدريجياً عن انحسار الدور العربي في الحوزة العلمية لصالح علماء العجم، وذلك بعد نزوح الحوزة العلمية من العراق إلى إيران وأصفهان على وجه التحديد، بفعل التشجيع والاهتمام الذي أبداه الصفويون لمراجع الدين الشيعة.

والحكاية تبدأ مع بدايات الدولة الصفوية، حيث كانت القيادة الدينية للتشيع بيد العلماء العرب رغم وجود علماء إيرانيين في العراق كالأستراباديون. واستمر الوضع على هذا المنوال إلى أواسط العهد الصفوي، ولكن ما أن استقر التشيع في إيران واضطربت الأوضاع الأمنية في العراق، لقيت الحوزات العلمية في إيران ازدهاراً ورواجاً واسعاً، وهيمن الإيرانيون على أوضاع الحوزة طلبيةً ومراجع وعلماء ومجتهدين. حتى إذا كانت الدولة الصفوية في آخر أيام سلطانها عاد من الصعب أن تعثر على عالم أو مرجع إلا وهو إيراني من الأساس أو متحدر من أصول عربية. واستمرت الأوضاع في الحوزة لصالح الإيرانيين طيلة الحكم

النادري والزندى ومن ثم الفاجارى، وكون الشيعة هم الأكثرية في إيران، حتم أن تكون نسبة الطلاب والعلماء الشيعة طاغية على نسب الطوائف الأخرى. ومع ذلك، لم تعدم الحقبة الفاجارية وجود علماء عراقيين عرب نذكر منهم: آل بحر العلوم، وآل كاشف الغطاء، وآل راضى، وآل نصار، وآل المظفر وآخرين.

ولنا أن نتصور إن أصول بعض من هؤلاء تعود في جذورها البعيدة إلى مدن إيرانية، ولكن إذا كان المعيار هو هذا، فينبغى القول بانسلاخ العراق عن هويته العربية، على اعتبار أن عراق ما قبل الإسلام لم يكن فيه من العرب إلا القليل. ومن الواضح إن العراق شهد تأريخياً موجات هجرة متعددة شكلت الهجرة العربية إليه إحدى مظاهرها الجلية.

### هجرة القبائل العربية من الجزيرة العربية إلى العراق

عروبة العراق حقيقة أفرزتها موجات الهجرة المتعددة التي قامت بها قبائل الجزيرة العربية إلى أرض السواد ولمرات متتالية قبل الإسلام وبعده. بعض هذه الهجرات حصلت في قرون سابقة وبعضها في قرون لاحقة، إلا أنه من المؤكد إنها ابتدأت قبل الإسلام حينما كان العراق أو جزء مما يعرف بهذا الاسم اليوم تحت سيطرة الدولة الساسانية بل إن مركز هذه الإمبراطورية كان هناك. مع ذلك فإن تواجد القبائل العربية آنذاك مهّد الطريق لظهور دولة عربية هي دولة المناذرة التي اتخذت من الحيرة عاصمة لها وكانت موالية للإمبراطورية الساسانية أو قل تابعة لتفوذها مع نوع مما نسميه اليوم بالحكم الذاتى. ولكن مع ظهور الدولة الإسلامية تصاعدت وتيرة الهجرة إلى العراق من

الجزيرة العربية، ومن ثم أصبحت بغداد مركزاً للخلافة العربية الإسلامية لقرون. في غضون ذلك برزت ظاهرة الأحلاف العشائرية التي تتكون من تحالف والتزامات متقابلة بين عدد من القبائل في مواجهة تحالفات أخرى، ومن ثم تطورت القضية إلى مستوى مجابهة قوى سياسية وحكومات، كما حصل في الاحلاف التي شكلتها بعض القبائل العربية لمواجهة سطوة الأتراك العثمانيين فظهرت تحالفات (المنتفق) و(الزبيد) و(الدليم) و(العبيد) و(الخزعل) و(بنى لام) و(البومحمد) و(ربيعة) و(كعب) وغيرهم. وتعود بعض هذه القبائل في نسبها إلى القحطانيين أو العدنانيين، فيما تشكلت لاحقاً أحلاف جديدة بعد طرور انقسامات على القديمة منها ما أسفر عن ظهور أسماء جديدة. وكان التشيع صفة ملازمة لبعض هذه القبائل منذ القدم، أما البعض الآخر فقد تشيع في فترات متأخرة من القرن الثامن عشر الميلادي وحتى القرن العشرين.

### القبائل العراقية والتشيع

ان انتشار التشيع في جنوب العراق وبين عشائر الجنوب تحديداً يتراوح بين القديم جداً والحديث من ناحية، فان التشيع في (خوزستان) تشيع قديم تاريخياً ويتصل بالحقبة المشعشعية، كما ان تشيع العشائر العربية في الحويزة وناحية الجزائر له جذور تاريخية تتصل ببدايات العصر الصفوي. ومن بين القبائل التي تشيعت في القرن السادس عشر الميلادي بفضل استقرارها بجوار الدولة المشعشعية التي حكمت خوزستان، قبائل بنى سلامة وطي. فيما كانت هناك عوامل أخرى وراء تشيع قبائل أخرى في جنوب العراق بقيت سنية حتى القرن

التاسع عشر الميلادي. ومن بين تلك العوامل تردّد الإيرانيين على العتبات المقدسة في العراق، وتواجد طلاب العلوم الدينية الذين يقدون من النجف وكربلاء إلى المناطق العشائرية بقصد الدعوة والتبليغ والإرشاد الديني مضافاً إلى تعلق أبناء العشائر الجنوبية بأهل بيت النبي صلوات الله عليهم أجمعين مما يحدوهم إلى زيارة المراقد الدينية والاحتكاك بمركز نشر ثقافة التشيع.<sup>(١)</sup>

ولا يوجد في الحقيقة ما يؤكد بوضوح متى حصل هذا التحول الكبير، بيد ان إسحاق النقاش وعلى ضوء معلومات مستقاة من كتاب (عنوان المجد) يذهب إلى ان هذا التحول حصل في القرن التاسع عشر، واعتباراً من ذلك الوقت شكل الشيعة الغالبية من سكان العراق.

ويقال أيضاً ان هجوم الوهابيين على كربلاء عام ١٢١٦ \ ١٨٠١ جعل علماء الدين العراقيين يهتمون بنشر التشيع بين عشائر الجنوب العراقي لسدّ الطريق لوجه أتباع محمد بن عبد الوهاب القادمين من ناحية نجد؛ الأمر الذي ساعد على بسط نطاق المذهب الشيعي بين أبناء تلك العشائر.

ان كتاب (عنوان المجد) لمؤلفه إبراهيم الحيدري البغدادي (م ١٨٨٢) يعدّ مصدراً مهماً للغاية يؤرخ لتلك المرحلة من تاريخ التشيع في العراق. فقد خصّ فصلاً كاملاً من الكتاب للحديث عن عشائر العراق وتصنيفها إلى عشائر سنية وأخرى شيعية. يقول في هذا الصدد: من بين العشائر التي اعتنقت مذهب (الرافضة) - وما أكثرها!- هم ربيعة التي تنقسم إلى عدة بطون - يعدّها الكاتب -

ويضيف إن ربيعة التي تقطن الجانب الشرقي من بغداد هم رافضة بينما ربيعة التي تقطن الجانب الغربي هم من السنة.

ومن العشائر العراقية الكبرى بنو تميم الذين تحولوا إلى شيعة منذ ستين عاماً - والكلام للبغدادي - وذلك بسبب تردد شياطين الرافضة! وتتوزع منازلهم ما بين نجد إلى البصرة واليمامة صعوداً إلى الكوفة والنجف، وبعدها تفرقوا في الآفاق.

كما إن الخزاعل يعتبرون من العشائر التي تشيعت منذ قرابة مائة وخمسين عاماً والخزاعل تصحيف من خزاعة.<sup>(١)</sup>

[جدير بالذكر ان قبيلة خزاعة من القبائل المعروفة بميولها الشيعية منذ الصدر الأول للإسلام].

والأمر ذاته ينطبق على عشائر (زيد) وهي كثيرة، وقد تشيعت منذ قرابة ستين عاماً وذلك بسبب الاحتكاك بالرافضة. ومن العشائر الرافضية أيضاً بنو عمير وهم بطن من تميم وكذلك خزرج الأكبر.

ومنهم أيضاً عشائر شمر طوقة، وهم كثيرون أيضاً وينتسبون إلى شمر المعروفة لكن الأخيرة تنكر عليهم ذلك، [من المحتمل ان يكون لهذا الإنكار دوافع مذهبية]. ومنها أيضاً الدوار والدقاعة، وكذلك عشائر العمارة ابو محمد، ولا حصر لهؤلاء، وقد أصبحوا مؤخرأ من الرافضة، وجميعهم من قحطان.<sup>(٢)</sup>

ومنهم أيضاً عشائر الهندية بالقرب من البصرة وينتهون إلى قحطان، وبنو لام

(١) الحيدري ١١٢

(٢) المصدر نفسه: ١١٥-١١٦



وعدددهم كثير جداً ولهم بطون عديدة ويرجعون إلى طى، وكانت منازلهم في المدينة قبل أن يقصدوا العراق.

أما عشائر الديوانية فتشمل آل الأقرع وآل بدير وعفج وجليحة وجبور، والأخيريون كثر، وكانوا سنة ولكنهم هاجروا إلى الديوانية وصاروا رافضة وهم متعصبون في الرفض. ومن عشائر العراق التي اتخذت طريق الرفض منذ أقل من مائة عام عشيرة بني كعب التي تتميز بكثرة البطون وتقطن المحمرة وتنسب إلى خزاعة.<sup>(١)</sup>

ويُعدّ بنو أسد من القبائل المشهورة جداً في صدر الإسلام وفي تاريخ العراق، وشهرتهم في التشيع لا تحتاج إلى مزيد بيان، وقد سكنت هذه القبيلة بادئ الأمر حوالي الحلة وواسط إلى الأهواز، وذات يوم، كانت الحلة مركزاً لإمارتهم، وفي زمان المستنجد بالله العباسي طردوا من الحلة وتفرقوا في الأرجاء.<sup>(٢)</sup> وتستوطن هذه القبيلة الآن جنوب العراق في منطقة الجبايش، وكان لها دور بارز في أحداث ثورة العشرين.<sup>(٣)</sup>

### استيطان العشائر ورواج التشيع

ثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام فيما يرتبط بالتعرف على الحياة الاجتماعية والاقتصادية لقبائل جنوب العراق، وهي إن هجرة هؤلاء من نجد إلى الشمال

(١) الحيدري : ١١٧-١١٨

(٢) الكامل في التاريخ ، حوادث السنة الهجرية ٥٥٨ .

(٣) الساعدي : ١٢٨-١٢٩ .

واستيطانتهم حول حوض الفرات حول أسلوب حياتهم تدريجياً من نمط البدو الرحّل إلى النمط الزراعي المستقر نوعاً ما. ويعتقد النقّاش ان احد أسباب هذا التبدل في النمط الحياتي هو انهيار النظم القبلية التي كانت تتحكم في حياة هؤلاء.

إن الاستيطان الدائمي أوجب من خلال ارتباط هؤلاء بالقبائل الشيعية والمراكز الدينية - النجف وكربلاء والحلة - التعاطي مع نظم جديدة في الفكر والسلوك تتوجت باعتراف المذهب الشيعي من قبل هذه العشائر.

ومن العوامل الأخرى التي عملت على ظهور نظام جديد يعتمد على أساس المذهب، هجوم الوهابية على الخزاعل وبقية القبائل. إن هذه الحملات التي انطلقت من نجد نحو العراق وأدت إلى فرض الحصار على النجف مرتين واستباحة كربلاء عام (١٢١٦هـ - ١٨٠١م) استغرت الكثير من قبائل المنطقة لمواجهة هذه الأعمال العدوانية على قاعدة الدفاع عن المذهب، وعزز من ذلك الجهود التي بذلها علماء الشيعة لتشجيع القبائل على الانخراط في أحلاف قبلية دفاعاً عن أنفسهم ومذهبهم.

وفي أواخر القرن التاسع عشر، كانت الحلة تعدّ مركزاً لتبادل البضائع بين العشائر، ولما كانت العشائر الأخرى تتردد على هذا المركز التجاري لأغراض التسوق، أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تحول هذه المدينة إلى مركز لنشر التشيع في العراق.

ويروى أيضاً ان الزابية وهم طائفة صغيرة وفدوا العراق بقصد زيارة العتبات

المقدسة، ولكنهم استقروا في منطقة الهندية الواقعة بين الحلة وكربلاء بسبب إمكانية الزراعة. وظهر من هذه الطائفة أسر علمية بارزة في النجف الأشرف منهم آل بنت الحجى وهم أسرة علم وأدب وفقهاء.<sup>(١)</sup> وكان للأسر العلوية حضور مشهود بين العشائر التي سكنت الحويزة احد المراكز الرئيسية للتثبع في خوزستان، وما زالت انساب هؤلاء محفوظة. ويشار إلى أنه لا وجود على الإطلاق لعشائر سنية عربية في خوزستان.<sup>(٢)</sup>

ونقل الخليلي في كتابه (هكذا عرفتهم) ان جماعة من أهل شوشتر قطنوا النجف منذ مئات السنين، وما زالوا يعرفون بهذا الاسم واللقب، ولهم حسينية وموكب عزاء خاص بهم وهم يحافظون على هويتهم إلى اليوم.<sup>(٣)</sup>

وانسحب الأمر نفسه على كربلاء والنجف مع بداية القرن العشرين فتحوّلت المدينتان إلى مركزين للتسوق التجارى، ما أدى إلى نشر ثقافة المركزين بين أبناء العشائر التي كانت تتردد عليها، خاصة مع كثرة المساحات الصالحة للزراعة في ضواحي كربلاء الأمر الذي شجع أبناء العشائر إلى الاستيطان في ضواحي كربلاء وعلى أطرافها، وكان ذلك ذريعة لنشر التثبع.

ومع تأهيل نهر الهندية في المنطقة الفاصلة بين الحلة وكربلاء استوطنت عشائر كثيرة في المنطقة التي تعرف الآن بسدة الهندية (على أساس رواية

(١) دراسات عن عشائر العراق : ص ١٠٢-١٠٣.

(٢) التاريخ الجغرافى لعرب خوزستان ص ٢٤٢.

(٣) هكذا عرفتهم : ١٤٥١.

مفادها إن امرأة هندية شيعية شيدت سدأ على النهر المذكور) وأصبح هذا منطلقاً لنشر ثقافة التشيع في المنطقة.<sup>(١)</sup>

والجدير بالملاحظة أيضاً إن التشيع ينتشر جغرافياً وسكانياً في المناطق الحضرية وليس له نفس التأثير والانتشار بين البدو الرحل وسكان البادية. وإن الثورات والاضطرابات التي شهدتها القرن التاسع عشر ضد العثمانيين أو شيوخ العشائر والإقطاعيين بسبب فرض ضرائب وأتاوات باهظة، سحبت علماء الدين إلى مسرح الحياة السياسية والاجتماعية كوساطة لحلّ الأزمة الأمر الذي زاد من نفوذهم على أبناء العشائر.<sup>(٢)</sup>

يضاف إلى ذلك أن مواطن استقرار عدد كبير من العشائر العراقية صارت سبباً لتشيعهم بفضل التواصل والاحتكاك مع الزوار الإيرانيين.<sup>(٣)</sup> ويقال في هذا السياق إن العديد من القبائل النازحة من الحويزة إلى العمارة وغيرها من المناطق الواقعة في طريق كربلاء، إنهم أقوام من الشيعة وفدوا إلى زيارة المرقد المقدسة واستوطنوا في المناطق الصالحة للزراعة جنوب العراق أو ارتبطوا مع العشائر التي تقطن هذه المناطق بعلاقات اقتصادية أو اجتماعية.<sup>(٤)</sup>

وهناك أيضاً شيعة البحرين الذين هاجروا إلى العراق أوائل القرن الثالث عشر واستوطنوا فيه لأغراض الزراعة، ومن هؤلاء آل (أبو طيخ) من السادات

(١) المصدر نفسه : ٥٥-٥٦ .

(٢) المصدر نفسه : ٦٠ .

(٣) المصدر نفسه : ٧٦ .

(٤) المصدر نفسه : ١٠٤ .

العلويين، حيث هاجر إلى العراق من الإحساء الأخوان سيد مهدي وسيد هادي ووقدوا عام ١٢١٤ على شيخ الخزاعل وأقاموا عنده وتكونت من سلالتهم عشيرة كبيرة.<sup>(١)</sup>

وفي أواخر القرن التاسع عشر حاولت الدولة العثمانية كبح جماح الدعوة إلى التشيع، وذلك عبر إرسال علماء دين يدعون إلى التسنن، إلا أن نزعته السلطان عبد الحميد للتوحيد بين المسلمين أسفرت عن إعطاء الشيعة هامشاً من الحرية في إقامة الطقوس المذهبية؛ الأمر الذي ساعد على انتشار الفكر الشيعي. ولكن بدايات القرن العشرين شهدت مساعي جملة من قبل العثمانيين للحد من النفوذ الشيعي بين القبائل.<sup>(٢)</sup>

ولعل انتقال الميرزا الشيرازي إلى سامراء وإقامته هناك قد حفزت علماء السنة على تكثيف جهودهم للحد من ظاهرة التشيع، وقد نجحوا إلى حد ما في ذلك.

وثمة تقرير حول العشائر التي كانت شيعية مع بداية القرن العشرين أو التي فيها سنة وشيعة، وكما يلي:

عشائر المتفق، وكانت شيعية ما عدا بني حميد، وعشيرة فداغة في الكاظمية منقسمة بين الشيعة والسنة. وكذلك الأمر حيال بني سعيد من منفع وزوبع من شمّر والذين كانوا يقطنون في سوق الشيوخ والكاظمية... غالبية بني تميم من

(١) المصدر نفسه: ١٢٣.

(٢) القبايل: ٦٩.

الشيعة بينما قسم من بنى عجيل والعزة بقوا سنة حتى أوائل القرن العشرين. [البيض من هؤلاء ما زالوا سنة الى يومنا هذا ويقطنون ما بين بعقوبة والخالص].

جبور الفرات شيعة وجبور دجلة سنة، ابو محمد هم من الشيعة قاطبة باستثناء بعض الشواذ. عشيرة المحيسن وهم فرع من كعب يسكنون أطراف شط العرب إلى الجنوب من البصرة، كلهم تقريباً شيعة ما عدا آل بنى غنيم.

عشائر ربيعة شيعة على العموم باستثناء فرع الكوام الكبير الذين يتوزعون ما بين الكوت، العمارة والكاظمية. وعلى هذا المنوال انقسمت عشائر شمر ودليم طائفيًا؛ شمر جرية الذين قطنوا العراق أواخر القرن الثامن عشر ما بين دجلة والفرات استمروا على المذهب السني، اما شمر طوقه الذين استوطنوا بالقرب من كربلاء أوائل القرن نفسه فقد تشيعوا جميعاً. أما الدليم فالقسم الأعظم منهم والذين سكنوا شمالي بغداد فما زالوا سنة، بينما تحول آل فتلة منهم إلى المذهب الشيعي بعد أن اختاروا منطقة الهندية مأوى لهم.<sup>(١)</sup>

وينبغي التوقف كثيراً أمام عبارات: (ما زالوا سنة) و (بقوا على المذهب السني) لما تستبطنه من زعم بأن الجميع كانوا سنة في الأصل، وهو مما لا دليل عليه.

جدير بالذكر ان ربيعة واحدة من أهم القبائل الشيعية التي نزحت من النجف صوب جنوب العراق، وكانت الزعامة فيها لمحمد الأمير وهو شخصية ذات نفوذ كبير. ومن مظاهر تشيع هذه القبيلة هو إقامة المضائف على طول الطريق إلى

العتبات المقدسة لتقديم الخدمة للزوار وفي هذا المجال قصص تروى.<sup>(١)</sup>

### التواصل المذهبي بين جنوب إيران وجنوب العراق

لنعد إلى الوراء قليلاً كي نتعرف على أحد الأسباب الرئيسية لانتشار التشيع في جنوب العراق. في البدء يجب أن ندرك أن التشيع المنتشر بين العشائر العربية في جنوب إيران (خوزستان) لا ربط له بتشيع المناطق المركزية وسط إيران والذي يعتد في جذوره التاريخية إلى ما قبل الدولة الصفوية بقرون.

كما لا ربط لهذا التشيع بالتشيع الصفوي، إذ مع سيطرة إسماعيل شاه الصفوي على مقاليد الحكم في إيران، كان قد مر وقت طويل على استقرار الدولة المشعشعية وحكمها المناطق الواقعة جنوبي العراق وإيران، وهو حكم ذو طابع شيعي بلغ في بعض حالاته حد الغلو. وكان قادة الدولة المشعشعية من أولاد السيد محمد فلاح (تلميذ ابن فهد الحلبي - ٨٤١م). وقد توفي السيد محمد سنة ٨٧٠، وأقام ابنه محسن دولة قوية من بعده، وواصل الحكم من بعده ابنه فلاح بن محسن الذي حافظ على كيان دولة أبيه في ظلّ الحكم الصفوي. وقد استقطبت هذه الدولة الكثير من العشائر العربية في الحوزة وضواحيها. ولكنّ الشاه إسماعيل الصفوي هاجم خوزستان وأخضع دولة المشعشعية لنفوذه بدعوى غلو هؤلاء. ولكن الشيء المؤكد في هذا السياق أن الكثير من قبائل جنوب إيران كانوا شيعة منذ ذلك الحين.

وتعدّ (كعب) من القبائل الشيعية المقتدرة في خوزستان وحكم شيخها

مقاطعات من خوزستان وقتئذ. وهناك أيضاً آل كثير وهم من العشائر المهمة التي قطنت قريباً من دزفول وشوشتر، وبنو طرف الذين استوطنوا حوض ميشان<sup>(١)</sup> بعد أن كانوا يعيشون حوالى البصرة، ومن ثم هاجروا الى خوزستان بعد ظهور الدولة المشعشعية فيها وسكنوا في أطراف الخفاجية.<sup>(٢)</sup>

وتدريجياً، انتقلت الكثير من القبائل الشيعية فسي خوزستان الى العراق حاملين معهم التشيع، وعكس ذلك حصل أيضاً حيث هاجرت الكثير من عشائر المنتفق من جنوب العراق الى خوزستان. وهناك هجرات عربية كثيرة حصلت بين هذه المناطق ساهمت في نشر التشيع فقد هاجر بعض أهالي البحرين والإحساء الى خوزستان ويعرفون اليوم باسم (البحارنة) و(الحساوية). وهناك أيضاً بنو سالة وهم فرع من خزاعة سكنوا العمارة أوائل القرن الثالث عشر الهجرى، وقد تحالفت هذه القبيلة في الماضى مع المشعشعية وما زال قسم كبير منهم يقطن في خوزستان.<sup>(٣)</sup>

### البصرة مركز رئيس للتشيع في العراق

تاريخياً، دشنت البصرة ميولها المذهبية في سنة ٣٦ للهجرة فكانت عثمانية الهوى. ولكن تزامناً مع ذلك ظهر فيها توجه شيعى محدود ولكنه قوى وفاعل.<sup>(٤)</sup> وقد خربت البصرة مرات عديدة بفعل الحملات المتعددة عليها من قبل

(١) انظر فهرس العشائر العربية في خوزستان من كتاب (التاريخ الجغرافى لعرب خوزستان) ، ص ١٠٨ - ٢٢٨. وايضاً القبائل والعشائر العربية في خوزستان ، يوسف بنى طرف ، الفصل الاول .

(٢) التاريخ الجغرافى لعرب خوزستان ، ص ١٧٩

(٣) المصدر نفسه : ص ١٤٣

(٤) النصرة لشيعة البصرة ، نزار المنصوري ، ص ٥٢٠ .



الخوارج ومن بعدهم القرامطة. ولم تر وجه العمران إلا بحدود القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين. وقد احتلت البصرة من قبل القوات العثمانية عام ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م.

وصف الحيدري (ق ١٩) البصرة بقوله: أهالي البصرة والجنوب من أهل السنة والجماعة لكن أهل شط العرب من الرافضة. وأضاف أن الرفض صفة عارضة على أهل البصرة ومنشؤها - حسب زعمه - من بلاد العجم والبحرين وبعض سكان البادية القاطنين على ضفاف شط العرب، وما عدا هؤلاء فإن كل بصرى أصلي فهو سني. [يلاحظ أن الحيدري كاتب سني متعصب]. ويعزو الحيدري تشيع أهالي شط العرب وما يليه من نواحي البصرة إلى عدم حضور العلماء السنة في تلك الأوساط. ولا ينسى التصريح بأن أهالي قرية الزبير من السنة الحنابلة.<sup>(١)</sup>

غير أن الدراسات الميدانية اللاحقة تفيد أن الزبير نصفها من السنة والنصف الآخر منها شيعة. إن الحضور التاريخي للشيعة في البصرة خاصة بين بني عبد القيس أمر لا غبار عليه.

أما عشائر المنتفق التي نوّهنا آنفاً بكثرتها فهي تتوزع على مناطق الاهوار المحيطة بالبصرة، والكثيرون منهم تشيعوا على أثر احتكاكهم وجوارهم للمشعشة.

### مركزية العتبات بالنسبة للشيعة (ق ١٨)

الدكتور علي الوردي لم يجانب الصواب حين قدّر بان هيمنة نظام الاجتهاد على الحوزات الشيعية فرض نفسه كواقع، يُعيد حسم النزاع بين الاصوليين والابخاريين. وكان الشيخ جعفر كاشف الغطاء - أحد مراجع الدين العرب - من ابرز الشخصيات التي وقفت بحزم بوجه التوجه الاخباري، وآلف في هذا السياق كتاب (الحق المبين في تصويب المجتهدين وتخطئة الاخباريين). وله ايضاً كتاب (كشف الغطاء عن عيوب الميرزا محمد الاخباري عدو العلماء) والأخير لقي حنقه مع أحد أبنائه في غضون الاضطرابات التي وقعت في الكاظمية بعد صدور الفتوى بقتله عام ١٢٣٢هـ-١٨١٧م. ومنذ ذلك الحين لم ترفع للإخباريين راية.<sup>(١)</sup>

ويضيف الوردي في كتابه ان النجف بدأت تتطور اعتباراً من عام ١٢٣٦هـ-١٨٢١م، ومرّد ذلك إلى تحسن العلاقات بين إيران والعراق وكثرة تردد العلماء والزوار. لقد ارتقت النجف في مكانتها العلمية بحيث أبدى الإيرانيون ميلاً كبيراً للسفر إليها لغرض الدراسة.

وكان تعداد طلبة النجف آنذاك (ق ١٣هـ-١٩م) يربو على عشرة آلاف فيهم الإيرانيون والأتراك والهنود، لكن نسبة الإيرانيين كانت هي الغالبة بالطبع.<sup>(٢)</sup>

ونظراً لانتشار التشيع في جنوبي العراق ووسطه ونزوح الشيعة صوب الشمال

(١) الوردي : ٧٨١٣

(٢) المصدر نفسه : ٧٩١٣.

واستيطانهم أحياناً حوالي بغداد، ازدادت النجف قدرة ونفوذاً خاصة مع تحول المركزية الشيعية العلمية من إيران إلى العراق خلال الحقبة الافشارية وأوائل العهد القاجاري. وقد ترسخت هذه المكانة للنجف يوماً بعد آخر من منتصف القرن التاسع عشر لتتجلى إلى العيان في أحداث تحريم التباك والحركة الدستورية المشروطة.

والملاحظة الجديرة بالناية هنا ان مراجع الدين الشيعة كانوا في تلك الحقبة خارج نطاق الدولة الايرانية، لذا لم يكونوا خاضعين لنفوذ وسلطة الحكام القاجاريين كما ان الاختلاف المذهبي حال في الوقت ذاته دون تبعية علماء الشيعة في العتبات لسلطة الباب العالي في الأستانة.

وهذه الوضعية اكتسبتهم مكانة فريدة من نوعها وحوالتهم إلى مركز قوة مهيب الجانب خاصة مع غياب المنافس. وقد تجذرت العلاقة بين مراجع الدين الشيعة وبين أتباعهم مع تطور الفكر الاجتهادي وشيوع ظاهرة التقليد.

### عدم نجاح الشيعة في التوسع شمالاً

عندما يجري الحديث عن العتبات المقدسة فالمقصود مدن أربع هي النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء. ولم يكن الشيعة يسيطرون الا على المدن الثلاث الأولى، أما سامراء الواقعة على الطريق الواصل بين بغداد وتكريت فكانت بأيدي السنة. وقد استطاع التشيع أن يصل شمالاً إلى مدينة بلد الواقعة في منتصف الطريق إلى سامراء التي لم يتمكن الشيعة من بسط نفوذهم فيها رغم احتوائها على مرقد الإمامين الهادي والعسكري عليهما السلام، ولهذا لم تكن سامراء

في وقت من الأوقات ملاذاً آمناً للزوار الشيعة خصوصاً الإيرانيين منهم. وفي هذا السياق تعدّ بلدة (بلد) أهم مدينة مأهولة شيعياً في تلك المنطقة، وجميع سكانها من الشيعة، وهم اليوم (٢٠٠٧ م) محاصرون من قبل السنة.

وخلال إقامته في سامراء، مهّد الميرزا الشيرازي لحضور شيعي في تلك البلدة، وذلك عبر تشييد المدارس والأسواق والمساجد والحمامات والتعامل برفق مع أهل سامراء، وتجع في التقرب اليهم. غير ان علماء السنة ثارت حفيظتهم من ذلك، وجيَّشوا الجيوش لأجل الحفاظ على سامراء سنّية، وكان على رأس هؤلاء محمد سعيد النقشبندی الذي بادر إلى الاستقرار في سامراء وشيّد فيها مدرسة لاستقطاب السنة، واستمر النزاع والتجاذب بين الطرفين فترة من الزمن، الا ان المدينة بقيت تحت سيطرة السنة.<sup>(١)</sup> وبعد وفاة الميرزا الشيرازي، ذهب النقشبندی إلى الديار المقدسة، ومن هناك قصد اسطنبول للقاء السلطان عبد الحميد الذي حباه بمنحة مالية من خزينة السلطان لغرض بناء وتأسيس مدرسة كبرى للسنة في سامراء. ومنذ ذلك الحين بات الزوار الإيرانيون عرضة للاعتداء من قبل سكان المدينة.<sup>(٢)</sup>

في غضون ذلك، كان هنالك عدد ضئيل من الطلاب في مدرسة الميرزا الشيرازي، وواصلت الحوزة تقديم الدعم المالي لهم رغم تعطل الدراسة فيها، ولكن بغية تشجيعهم على عدم ترك سامراء. وخلال شهر رمضان وحيث تبقى

(١) الوردی ٨٩١٣-٩٢

(٢) الوردی : ٩٤١٣ .

أبواب المراقد في النجف وكربلاء مفتوحة طوال الليل، كان ليف من طلبية النجف يقصدون سامراء لأجل إحياء ليالي رمضان في مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام ويحرصون على إبقاء أبواب المرقد مفتوحة خلال الليل.

### وثائق عثمانية تتضمن محاربة التشيع

إن النزاع الصفوي - العثماني على المسرح العراقي لم يقتصر على البعد السياسي، وإنما كانت له جذور مذهبية. ومعروف ان العثمانيين كانوا منهمكين بمحاربة التشيع في الأناضول منذ القرن السادس عشر الميلادي وقبل ان يكونوا بصدد مواجهة نفوذ التشيع في العراق. والواقع انهم أعلنوا المعركة ضد التشيع من هناك، حتى إذا ما تمكنوا من قمع الميول الشيعية في تلك المناطق، عادوا ليركزوا جهودهم على الوقوف بوجه المد الشيعي في العراق. بيد أنهم في هذه المرحلة باتوا منهكي القوى وتراجعت قدرتهم على المناورة سياسياً. ومع انشغالهم بدرء المشاكل والاضطراب على الجبهة الاوربية لم يكونوا ميالين إلى فتح جبهة أخرى للصراع على الجانب الشرقي وخلق مشاكل مع القاجاريين. من هنا أبدوا مرونة نسبية في التعاطي مع الأوضاع في العراق؛ الأمر الذي خفف كثيراً من الضغط على الحوزة في النجف. وإذا كانت النجف لم تستثمر الأوضاع لصالح نشر التشيع أكثر، فمرد ذلك إلى تقصير منها في اداء وظيفتها.

ثمة وثائق في أرشيف الدولة العثمانية تشير إلى وجود تحذيرات مكررة من خطر انتشار المد الشيعي في العراق أواخر العقد الأخير من القرن الثامن عشر، أي في فترة حكم السلطان عبد الحميد لثاني. والواقع ان العثمانيين كانوا يعدون

التشيع في إيران حائلاً دون وصول الأتراك إلى الموارد البشرية السنية في الشرق الأقصى.

في هذه الفترة، فاق العلماء الشيعة في العراق نظراءهم السنة في العدد وفي مساحة الولاء والقدرة على التأثير في أوساط المدن والريف والبادية. وفي تقرير مرفوع إلى الأستانة من قبل القنصل العثماني في آذربيجان الإيرانية إشارة إلى أن الشيعة يشكلون نسبة ٤٠٪ من سكان العراق وقد حملت تلك المذكرة توصية باستعمال اللين في معالجة الموقف واقترح إرسال مدرسين سنة من اسطنبول إلى العراق ومحاولة التأثير على الأوضاع فيه من خلال المدارس وأساليب التربية والتعليم وتفادي اللجوء إلى سيف السلطان سليم.<sup>(١)</sup>

وفي مذكرة أخرى بهذا الصدد ورد التأكيد على استقلالية علماء الشيعة في العتبات المقدسة، وجاء في المذكرة أن المجتهدين الشيعة لا يتطلعون إلى مناصب رسمية ولا يخشون بالتالي من العزل أو الإقالة، ومن ثم فإن السيطرة عليهم مهمة صعبة خاصة مع ما يتمتعون به من نفوذ لدى عامة الناس، حيث يرون فيهم نواباً للإمام ما يمنحهم مكانة عظيمة تفوق مكانة السلطان آلاف المرات... إنهم بكلمة واحدة قادرين بمحض الإشارة على تحريض الناس ضد السلطان وفي غضون أربع وعشرين ساعة فقط!

في تلك الأثناء، كانت الحكومات الإيرانية تتمتع بنفوذ كبير على الأوضاع في العراق نظراً لقوة التواجد الإيراني في العراق على صعيد الحوزة أو

المجتمع عموماً.

وهذا هو بالضبط ما كان يشكل مصدر قلق كبير بالنسبة للعثمانيين، ما دعاهم إلى إتباع سياسة خاصة تعتمد ضبط أعداد الزائرين والتضييق على المجتهدين الشيعة والدعوة للمذهب السني والتظاهر باحترام العتبات المقدسة كمؤشر على احترام الدولة العثمانية لعقائد الشيعة كل ذلك من أجل الحد من النفوذ الإيراني على الساحة العراقية.<sup>(١)</sup>

ان حادثة تحريم الشبّاك عام ١٣٠٩ هـ/١٨٩٢ م لم تزلزل العرش الإيراني فحسب، بل أثارت الرعب في قلوب السلاطين الأتراك أيضاً. وبعد تلك الواقعة كتب سليمان حسين باشا أحد الأتراك المنفيين إلى بغداد شارحاً أبعاد الحدث ودور الميرزا حسن الشيرازي فيه، قال نظراً لأن المجتهدين الشيعة يعدّون جميع الحكومات غاصبة، فلا بد من العمل على الحد من نفوذهم من قبل الدولة، فهؤلاء عقبة كأداء بوجه الترقى والتقدم، وهم بالتالي خطر جسيم... وتصدر الإشارة إلى ما في بعض التقارير من ان العتبات تحولت عملياً إلى مدن إيرانية بفعل ما يتدفق عليها من أموال إيرانية.<sup>(٢)</sup> ومن شأن هذه الأموال أن تجعل من الشيعة أغنياء في مقابل السنة الفقراء، الأمر الذي يتجلى في أوضاع صورة في الحوزات العلمية الدينية حيث ان الشيعة منها تكاد تكون مكنتية ذاتياً في مقابل عوز كبير تعاني منه الحوزات السنية.<sup>(٣)</sup>

وهذا الأمر كان سبباً في ازدهار التجارة بين الشيعة وظهور جيل من التجار

(١) دربنكيل ٢٠ - ٢١

(٢) المصدر نفسه : ٢٢ - ٢٣

(٣) المصدر نفسه : ٢٤ .

الشيعة في بغداد والأماكن المقدسة.

مع ذلك، فإن الدولة العثمانية أبدت اهتماماً خاصاً بعمارة العتبات المقدسة على اعتبار ان الموضوع يرتبط بحيثية الدولة حسب ما نوهت به تقارير مختلفة صادرة من وإلى الآستانة بهذا الخصوص.<sup>(١)</sup> وهذا التوجه ظهر جلياً بعد إحساس الدولة العثمانية بالحاجة إلى دعم علماء الشيعة في توجّه السلطان لتوحيد المسلمين قبال الخطر المتمثل بالتحديات الأوروبية.

والحقيقة، ان سياسة العثمانيين حيال العتبات المقدسة حملت في هذه الفترة الكثير من التناقضات فرضها تقاطع المصالح، فهي من ناحية تخشى من توسع المدّ الشيعي، ومن ناحية أخرى تحتاج إلى علماء الشيعة وفتاواهم الحائّة على وحدة المسلمين.<sup>(٢)</sup>

وفي واحدة من المفارقات الغريبة، لا بدّ من الإشارة هنا إلى ان الكثير من الإيرانيين تمكنوا من الهجرة من إيران إلى اسطنبول، إما مباشرة أو عن طريق المرور بالعراق. وقد ازداد عدد هؤلاء المهاجرين مع أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إلى درجة أنهم تمكنوا من إقامة المراسيم المذهبية الشيعية في عاصمة الدولة العثمانية، وببهاء لم يسبق له مثيل.<sup>(٣)</sup>

(١) المصدر نفسه ٢٨-٢٩

(٢) النقاش ١٠٦

(٣) دربنكيل : ٣٠.

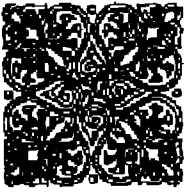




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

## الفصل الثاني

---



## الجغرافية البشرية والسياسية

### للشيعة في العراق



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

طبقاً للإحصائيات المنشورة بشأن التوزيع الديموغرافي المذهبي في العراق، فإن العرب الشيعة يشكلون الغالبية من أبناء المجتمع العراقي. ويتحدث الكاتب حنّاً بطاطو بهذا الصدد مقسماً الجغرافية الدينية والمذهبية في العراق إلى مناطق ثلاث

المنطقة الأولى : وهي أكثر المناطق المأهولة بالسكان ويقطنها الشيعة، وتضمّ المحافظات الواقعة إلى الجنوب من بغداد وهي من الناحية العرفية تعدّ منطقة عربية، باستثناء اقلية إيرانية متواجدة في البصرة والنجف وكربلاء. ولا يشكل الشيعة ١٠٠٪ من سكانها لوجود مناطق صغيرة تتواجد فيها أقلية سنية، كما إن مدينة الزبير والقسم الواقع جنوب غرب البصرة مأهول بالسنة.

المنطقة الثانية : وادي الفرات إلى الشمال من بغداد، يقطنه العرب، ووادي دجلة الممتد من بغداد إلى الموصل ساكنيه من السنة، مع أقليات شيعية في بلد والدجيل وسامراء. وفي أطراف هذه المنطقة والمنطقة الثالثة - الآتي شرحها - ينتشر التركمان على امتداد طريق البريد القديم

الواصل بين بغداد والموصل واسطنبول.<sup>(١)</sup>

ويتوزع التركمان الشيعة على مدينة تلعفر - قرب الموصل - وداقوق وطلوزخرماتو وقره تبه، فيما يتواجد الاكراد السنة في التون كوبري وكركوك وكفرى، وجزء من اهالى كركوك من الشيعة التركمان.

المنطقة الثالثة : وهي تشمل الهلال الجبلى الكردي، وهي منطقة خصبة ترويهامطار شمال العراق وشماله الشرقى. وهي منطقة سنّية أيضاً، مع فارق ان هذه المناطق مأهولة منذ العهد الملكى بأتباع الأديان الباطنية والصوفية. وحي

(١) التركمان وأغلبهم شيعة عانوا الكثير من فمخ السلطة البعثية . ويقال ان تشيعهم يعود إلى زمان انشاء روح حفيد تيمور . أيام سيطرة دولة الخروف الأسود يزعمه انشاء جهاتشاء على بغداد وضواحيها الشمالية (١٤٤٧ م) وتوسّعها باتجاه الجنوب العراقي . بعد ذلك ساهم انشاء اسماعيل في نشر التشيع بين صفوف التركمان . حيث شجع الكثير من الدعاة إلى استيطان تلك المناطق واشاعة المذهب الشيعى فيها . وظهرت فرق كثيرة بين الشيعة التركمان مثل (العلوية والبهكناشية والصارلية) وقد هاجر بعض الشيعة التركمان إلى النجف وكربلاء بعد احتلال العراق من قبل الاتكليز ، مما أدى إلى إقامة جسور واصل بين علماء الشيعة ومقر تواجد التركمان في كركوك وضواحيها . ولقد حارل صدام اجتذاب التركمان . فمضهم حق تشكيل الجمعيات واصدار المطبوعات ، ولكن لم تعض فترة طويلة حتى انقلب عليهم بعد أن رأى انه لم ينجح في كسب رضاهم . فأمر باخلاق المدارس وتسبب المعلمين إلى مناطق بعيدة عن محل سكنهم في كركوك . كما قام بطرد الاكراد والتركمان من شركات النفط وقيهم إلى جنوب العراق ، الأمر الذى أوجد نوعاً من التحالف بين الكرد والتركمان . وبعد الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١ م داهم الجيش مناطق التركمان ما اضطر بعض التركمان إلى الهرب صوب الحدود التركية خوفاً من انتقام البعثين . وفى وقت من الأوقات سلط البعثيون جام غضبهم على الشيعة التركمان واتهموهم بالانتماء لحزب الدعوة الإسلامية واعدموا الكثير منهم . والى الآن يحتفظ التركمان السنة والشعبة بعلاقات طبيعية تجمع الفريقين . وهذا الأمر ينطبق على التركمان السنة في كركوك والشيعة في منطقة (تسعين) وعلى جميع التركمان المستشرين من خانقين إلى تلعفر التى يتركز فيها الشيعة ويحيط بها السنة ، وهناك اعداد غفيرة من التركمان الشيعة في اطراف الموصل وداقوق وطلوزخرماتو وقره تبه وخانقين ومندلى . ولتفاصيل أكثر في هذا الصدد راجع الموقع الإلكتروني : ([www.alturkmani.com](http://www.alturkmani.com))

هذا ، ومع كتابة هذه الأوراق طالت الفتنة الطائفية التركمان عندما يادر التركمان السنة خارج تلعفر إلى قتل أقرانهم الشيعة ضمن حملات إبادة وحشية .

القرن التاسع عشر حصل نزاع بين أبناء هذه المنطقة وبين أهالي بغداد من أتباع الشيخ عبد القادر الكيلاني. وعلى أي حال، فإن المتصوفة العرب لم يكن لهم من الفعالية والنشاط ما لإقناعهم الكرد إبان العهد الملكي، ما عدا سامراء، ولكن هذا النوع من النشاط للصوفية العرب تنامي فيما بعد العهد الملكي.

هذه المناطق الدينية الثلاث تتداخل فيما بينها في العاصمة بغداد. ففي محلة (عقد الأكراد) في بغداد يتواجد الكرد الشيعة الذين يصطلح عليهم محلياً باسم الأكراد القيلية.<sup>(١)</sup> وفي جميع المناطق الثلاث المشار إليها تعثر على مواطنين غير مسلمين يشكلون بمجموعهم نسبة ٣٪ من مجموع نفوس العراق. وكانت نسبتهم ضعف ذلك قبل ان يغادر اليهود العراق إلى فلسطين المحتلة منذ العالم ١٩٤٧<sup>(٢)</sup>

ويتعرض بطاطو لبحث جذور التشيع في المنطقة التي يشكل الشيعة فيها الآن الغالبية المطلقة فيقول ان ابا بكر الخوارزمي (م ٩٩٣ أو ١٠٠٢ م) وضمن أشارته إلى مرقدي الإمام علي والإمام الحسين عليهما السلام يعتبر التشيع شأناً عراقياً.

(١) بطاطو يقول ان خمسين بالمائة من سكان ديالى هم من الشيعة عربياً كانوا ام كرداً ام تركمان. علماً ان الاكراد القيلية كلهم من الشيعة وكانوا يتركزون في محافظة ديالى، ولكنهم تبعثروا على المحافظات المجاورة ومنها بغداد جراء السياسات التوسعية بحقهم. وهؤلاء الاكراد هم فروع من العشائر الكردية الموجودة في ايلام وكرمانشاه، ولا تربطهم باكراد شمال العراق صلة تذكر وهم يرفضون الانتماء اليهم سياسياً، والعدد التقريبي لهم حوالي مليون نسمة والكثير منهم ايام نظام صدام وخوفاً من غضب السلطة ادعى العروبة أو أخفى تشيعه.

(٢) بطاطو: ٥٧١١-٥٩.

ويقول ان ما كان يطلق عليه حينها اسم (العراق) باستثناء بغداد والمناطق الواقعة إلى الشمال منها هو الآن موطن الشيعة في هذا البلد. وقلب هذه المنطقة هو حوض الفرات الأوسط. ولقد ساهمت دولة آل بويه - وهم أسرة فارسية شيعية - علو شأن آل مزيد من بني أسد وهم شيعة يقطنون البصرة. ولا ننسى دور الأسرة المشعشعية التي سيطرت على الشريط الحدودي من تخوم بغداد إلى الخليج أواسط القرن الخامس عشر الميلادي. (وكان الجنوب العراقي في أيام حكمهم شيعياً بمجملة ما عدا البصرة طبعاً). كما ان التغييرات التي طرأت على مسار نهري دجلة والفرات غيرت شكل المنطقة، فاندثرت مدن مثل واسط والمدائن، وظهرت أخرى مثل العمارة والناصرية. وهناك عشائر قديمة انقرضت أو أفل نجمها، فيما برزت عشائر جديدة قدمت من شبه جزيرة العرب واستقرت في الأراضي السهلية لدجلة والفرات. هذه التحولات الديموغرافية أدت إلى خلق أوضاع جديدة كان أبرزها اتساح المنطقة بوشاح التشيع.

ويضيف بطاطو عوامل أخرى يرى أنها ساهمت في تنامي المد الشيعي في

هذه المنطقة، من بينها

- وجود علماء الشيعة في النجف وكربلاء.

- مركزية النجف والحلة بالنسبة للتشيع.

- العلاقات التجارية والمذهبية بين شيعة العراق والشيعة في بلاد فارس.

أضف إلى ذلك، ان الكثير من العشائر التي تستوطن المنطقة لا تبدي مقاومة

تذكر حيال ما تجده من آداب وتقاليد وشعائر دينية. ولهذا نجد أن بعض هذه

العشائر انقسمت إلى شطرين : شطر سني وآخر شيعي. ومن هذه العشائر عشيرة شمّر التي تنقسم إلى قسمين شمّر جربة وهم سنة، وشمّر طوقة وهم شيعة.

كما أن آل فتلة الذين شكّلوا عماد ثورة العشرين هم فرع شيعي من قبيلة الدليم السنية ويقطنون الفرات الأوسط. نفس الأمر ينسحب على الجبور، فالذين يقطنون منهم أطراف الحلة ونهر الفرات من الشيعة، أما الذين يتواجدون في منطقة الشرقاط جنوب غرب الموصل فهم جبور سنة.

إن تردد رجال الدين على هذه المناطق أسهم بلا شك في بسط مساحة التشيع.

ويواصل بطاطو تحليل أسباب تنامي التشيع في العراق في ظلّ نظام الحكم العثماني المناوئ أصلاً للشيعة، فيذكر بحقيقة أن أوامر السلطة العثمانية حينها لم تكن مؤثرة إلا في حدود المدن الكبيرة التي يتواجد فيها مندوبون عن الدولة العثمانية، أما المدن الصغيرة والقرى والأرياف فتبقى بعيدة عن التأثير بهذه المقررات والقوانين. ناهيك عن أن الدولة العثمانية لم تكن تمارس ضغطاً كبيراً على الشيعة أو تمنعهم من أداء طقوسهم الدينية والمذهبية.<sup>(١)</sup>

عدد الشيعة حسب إحصاء عام ١٩١٩ - ١٩٢٠ م

عام ١٩٢٠ أجرى في العراق إحصاء سكاني عام شمل جميع مناطق العراق



باستثناء السليمانية التي لم تكن تابعيتها للعراق محسومة حتى ذلك الحين. وقد جاءت نتائج الإحصاء على النحو الآتي بحسب المذكرة التي رفعتها القنصلية الإيرانية في البصرة حينها، وجاء فيها ما يلي

عدد الشيعة	التعداد الكلي	المحافظة
٥٤٠٠٠	٢٥٠٠٠٠	بغداد - المركز
٦٨٢١٥	٣٣٠٧٩٠	بغداد - المحافظة
٩٨٨١٢	١٠٧٧٩٧	الكويت
٢٠٠	٢٥٠٠٠٠	الدليم
٢٦٠٩٧	١٠٤٠٣٦	ديالى
١٣٠٠٠٠	١٦٥٦٠٠	البصرة
١٥٥٨٩٧	١٧٣٠٠٠	الحلة
١٩٢٣٠٠	٢٠٤٥٠٠	الديوانية
٣٠٦٠٠٠	٣٢٠٠٠٠	المنتفك
٢٨٤٧٠٠	٣٠٠٠٠٠	العمارة
١٧١٨٠	٣٥٠٣٧٨	الموصل
٥٠٠٠	٩٢٠٠٠	كركوك
—	١٠٦٠٠٠	اربيل
١٨٩٠٠٠	١٩٠٠٠٠	كربلاء

المجموع الكلي = ٢٨٤٩٢٨٢<sup>(١)</sup>، الشيعة = ١٠٠٥٠٠٠.

وطبقاً لما أورده حسن العلوي يمكن اعتماد النسب التالية على ضوء نتائج التعداد السكاني آنف الذكر والذي نظمه الانجليز لجميع مناطق العراق ما عدا السليمانية.

العرب الشيعة ٥٥%

العرب السنة : ١٩%

الكرد السنة : ١٨%

اليهود والمسيح وباقي الطوائف : ٨%

لكن هذه النسبة ارتفعت إلى ٥٦% في إحصاء عام ١٩٣٢، حيث بلغ عدد الشيعة ١٦١٢٥٣٣ نسمة من مجموع ٢٨٥٧٠٧٧ نسمة يشكلون كل سكان العراق<sup>(١)</sup>.

إحصاء عام ١٩٤٧

وقد أفرز هذا الإحصاء الرسمي الذي أجرته الحكومة العراقية، عام ٤٧ النتائج التالية:<sup>(٢)</sup>

النسبة	التعداد	الطوائف
٥١/٤	٢٣٤٤٠٠٠	العرب الشيعة
١٩/٧	٩٠٠٠٠٠	العرب السنة
١٨/٤	٨٤٠٠٠٠	الكرد السنة

(١) النقاش ٣٢.

(٢) بطاير : ٦٠١.

النسبة	التعداد	الطوائف
١١٢	٥٢٠٠٠	الشيعة الايرانيون
٠.١٩	٤٢٠٠٠	التركمان الشيعة
٠.١٦	٣٠٠٠٠	الكرد الشيعة
٣	١٤٩٠٠٠	المسيحيون
٢١٦	١١٧٠٠٠	اليهود
٠.١٨	٣٣٠٠٠	اليزيدية والشبك
٠.١٢	٧٠٠٠	الصابئة

نستنتج من الأرقام والبيانات أعلاه أن نسبة الشيعة - عربياً وكرداً وتركماناً - تبلغ ٥٤١١٪ من مجموع سكان العراق ؛ ما حدا بالكاتب حسن العلوي إلى القول ان تجاهل شيعة العراق العرب يفضي إلى تراجع نسبة العرب في هذا البلد إلى اقل من ١٨٪<sup>(١)</sup>.

ويتطرق العلوي إلى اتجاه قومي عربي سعي منذ عام ١٩٢٠ لإخسراج شيعة العراق من دائرة العروبة. والمفارقة ان عدد الإيرانيين المقيمين في العراق ٥٢٠٠٠ نسمة، في حال ان الكاظمية وحدها بلغ عدد نفوسها عام ١٩٧٦م (١١٥١٧٦٠) نسمة، وبالتالي فإن مصادرة الوجود الشيعي في العراق سوف تعكس نقاطه سلباً على توجهات القوميين العرب !

ذات يوم، سُئل السفير العراقي في الصين عيسى سلمان التكريتي حول الأكثرية في العراق ؛ هل هي للسنة أم للشيعة ؟ فأجاب سلمان بأن العجم في

العراق أكثر من العرب، ولكن إذا جمع العرب مع الكرد، فإن مجموع هاتين الفئتين يتجاوز عدد العجم. فتصدي احد الحاضرين وهو فلسطيني لسؤال السيد السفير إن كان شيعة العراق من العجم، فأجاب : نعم !<sup>(١)</sup>

ان خطورة هذا التوجه حيال عروبة العراقي دعا بعض القوميين العرب مؤخراً للزعم بأن شيعة العراق نوعان ؛ فمنهم العربي ومنهم غير ذلك !

### الجغرافية السياسية لشيعا العراق

بعد تعرّضه للإحصائيات ذات الصلة بالوجود الشيعي في العراق، تناول حنا بطاطو طبيعة الصلة بين النظام الطائفي والسلطة السياسية وموضوع ملكية الأرض وسهم الطوائف فيها. ويتكلم بطاطو حول العقد الثاني من القرن العشرين قائلاً

كان هناك ارتباط وثيق بين الولاء الطائفي والنظام الاجتماعي، على نحو أن أغلبية الملاك المتنفذين في البصرة هم من السنة ما عدا شخصاً واحداً، في حال ان اغلب المزارعين وأصحاب البساتين من الشيعة. والشخص الشيعي الوحيد الذي قلنا انه من الملاك هو شيخ المحمرة وهو صاحب أراض شاسعة.

ان وجوه وأعيان المجتمع البصري كانوا من السنة أيضاً، أما ساكنوها فغالبيتهم شيعة. مع ملاحظة ان رجال الدين الشيعة كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية جيدة.

وفي المدن الجنوبية الأخرى - عدا النجف و كربلاء - مثل السلة الأقلية المتفوقة اجتماعياً، واغلبهم من التجار والأثرياء وأصحاب الأراضي والمقاطعات. وكان هؤلاء يهيمنون على مقاليد التجارة في الأسواق الشيعية الصغيرة، كما إن الأسواق الصحراوية تدار من قبل التجار السنة القادمين من منطقة نجد في الجزيرة العربية.

في لواء المنتفق، كان المزارعون قاطبة من الشيعة، في حال ان الملاك اكثرهم من أبناء عشيرة السعدون السنية. وهكذا الوضع في الحلة. هزاع من محيّد شيخ المعامرة من فروع زبيد. مالك سنّي وأكثر مزارعيه من الشيعة. أما في بغداد حيث يتعادل التركيب السكاني بين السنة والشيعة من ناحية العدد، فنجد ان الأسر المتسلطة سنية في الغالب مع وجود استثناءات.

وفي الجيش يحتكر السنة كل المراتب العسكرية العليا، ما عدا الجنود والمراتب وبعض الضباط الصغار فعاليتهم المطلقة من عشائر الجنوب.<sup>(١)</sup>

ان هيمنة السنة على المدن يعود تاريخياً إلى زمن الدولة العثمانية، اما هيمنتهم على الريف، فمرده إلى سيطرة أهل الإبل على أهل الزراعة !

وينوّه بطاطو إلى ان الاوضاع الاجتماعية في جنوب العراق شهدت بعض التحسن في الأربعينيات، ويستدلّ على ذلك بأن السنة بدأوا يزوجون بناتهم

(١) بطاطو ٦٦١١ أبرز الأسر البغدادية كانت سنية مثل آل الكيلاني والجميل والسويدي، والحدري، والسنوي، والطبقجلي، والشاوي، والشواف، والداود والزهاوي، والجادرجي، والخضيري، والبايجي، والدفتري .

للشيعَة، وما كانوا يقدمون على ذلك من قبل.<sup>(١)</sup>

حتى عام ١٩٤٧ م لم تتقلد ولا شخصية شيعية منصب رئاسة الوزراء في حال ان الأعوام الواقعة بين ١٩٤٧-١٩٥٨ شهدت أربع حكومات يرأسها شيعَة.<sup>(٢)</sup> مع ذلك لم يكن للشيعَة حضور فاعل في مراكز صنع القرار، بيد أن اتساع نفوذهم الاقتصادي مهّد لإعطائهم دوراً سياسياً أكبر، وهذا الوضع تبلور أكثر في الخمسينيات من هذا القرن، بحيث أن الملاك الكبار للأرض في العراق كان عددهم سبعة عام ١٩٥٨ م ستة منهم شيعَة، ومن بين ٤٩ أسرة عراقية مالكة للأرض كانت ثمة (٢٣) أسرة شيعية عربية و (١٤) أسرة سنية عربية، (١١) أسرة كردية وأسرة يهودية واحدة.

وحتى ذلك الوقت كان الشيعَة يمتلكون (٤٤/٣) من الأراضي العراقية المسجلة كعقار. وبعد تسفير اليهود عام ١٩٤٩، سيطر الشيعَة على مقاليد الأمور على الصعيد التجاري في بغداد، وذلك في حقبة زمنية عدّها المؤرخون ربيع الشيعَة.<sup>(٣)</sup> وبالطبع فإن صعوبة تدرج الشيعَة في المناصب الحكومية العليا جعلهم يتوجهون إلى المضمار التجاري. وعام ١٩٥١ حين إجازت الحكومة العراقية

(١) إرث الزوجة في الفقه الشيعي أكثر منه في الفقه السني، وهذا أحد الأسباب وراء إقدام الستة على تزويج بناتهم من الشيعَة، خصوصاً مع أوائل القرن العشرين. (انظر: شمراي ١٢٦-١٢٧)

(٢) وهم: السيد محمد الصدر وعبدالوهاب المرجاني وصالح جبر وقاضل الجمالي، وبعد هزيمة صدام في الكويت كلّف اثنين من الشخصيات الشيعية لتولي منصب رئاسة الوزراء، الأول سعدون حسادي والثاني محمد حمزة الزبيدي

(٣) انظر: شمراي ١٢٧. على الخصوص بعد تصدّي صالح جبر ومحمد الصدر لمنصب رئاسة الوزراء عام ١٩٤٧-١٩٤٨.

للـيهود ان يغادروا البلد ارتفع عدد المهاجرين إلى أكثر من مائة ألف مما ترك فراغاً ملحوظاً في السوق التجارية ما لبث أن شغله التجار الشيعة والمسيحيون الذين وجدوا في ذلك فرصة مناسبة ومجالاً جديداً للقيام بأنشطة وفعاليات تخدم الشرائح الاجتماعية التي ينتمون إليها.<sup>(١)</sup>

ولابدّ من الإشارة هنا ان حصول الشيعة على مركز الصدارة التجاري لم يبلغ حقيقة أنهم كانوا الأقدر اقتصادياً في الإطار العام، خاصة أولئك الذين هاجروا من العمارة إلى بغداد واستوطنوا المناطق الشرقية منها وكان لهم بعد دور في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.<sup>(٢)</sup>

جدول يبين المناصب الحكومية التي تقلدها الشيعة إبان العهد الملكي (دون احتساب رئاسة الوزراء) :

الفترة الزمنية	مجموع المناصب الحكومية	حصة الشيعة منها	النسبة الصئوية
١٩٣٢-١٩٣١ (الانتداب)	١١٦	٢٠	١٧/١٧
١٩٣٦-١٩٣٢	٥٧	٩	١٥/٨
١٩٣٦-١٩٤١ فترة الانقلابات	٦٥	١٨	٢٧/٢٧

(١) فيب مار ١٧٢

(٢) بطاطو : ٧٠-١٩

النسبة المئوية	حصة الشيعة منها	مجموع المناصب الحكومية	الفترة الزمنية
٢٨١١	٢٥	٨٩	١٩٤٦-١٩٤١ الاحتلال البريطاني الثاني للعراق
٣٢١٧	٨٧	٢٥١	١٩٥٨-١٩٤٧
٢٧١٧	١٥٩	٥٧٥	المجموع
* نسبة الشيعة إلى مجموع السكان عام ١٩٤٧ تساوي ٥١/٤٪			

وفي هذا السياق، يلقي فيب مار نظرة عابرة على تطورات الأحداث في العراق في الأعوام (١٩٢٠-١٩٥٨م):

(استحوذ العرب السنة على جميع مرافق الحياة الاجتماعية تقريباً... ففي الفترة الواقعة ما بين ١٩٢٠ إلى ١٩٣٢ كان الأشخاص الثمانية الذين تقلدوا أعلى منصب سياسي في الدولة جميعهم من السنة).

وفي معرض حديثه عن نفوذ السنة وهيمتهم على قطاع التربية والتعليم، يضيف فيب مار

(نظراً لكون الدراسة في المرحلة المتوسطة تمثل مفتاح الرقي والصعود فإن العرب السنة حصلوا على امتيازات ملحوظة في هذا القطاع. ولم يقتصر الأمر على تلقّيهم الدراسة في هذه المرحلة المفصلية، بل هيمنوا على النطاق الأوسع



في مجال كسب المهارات المهنية، ما أهّلهم لتولّي وظائف الدولة).<sup>(١)</sup>

أما بخصوص الشيعة العرب فيصرح فيب مار بأن من استطاع منهم تطوير قابليّاته الذاتيّة، فقد تحقّق له ذلك في القطاع الخاص وخارج نطاق المؤسسات الحكوميّة. ولكن اتّسع دائرة التربيّة والتعليم زاد من نسبة الكفاءات الشيعيّة المتعلّمة بحيث بلغت نسبة هؤلاء مع مطلع عام ١٩٥٨ م حوالي (٥١٣) من مجموع الشرائح المتعلّمة. ويشير فيب مار إلى أن فاضل الجمالي عمل على تشجيع الشيعة على دخول دار المعلمين العاليية بحيث أن بداية الخمسينيات شهدت ظهور طبقة جديدة من أصحاب الحرف والأخصائيين الشيعة ممن تم إعدادهم للعب دور مهم في إطلاق عملية بناء اقتصاد حديث للعراق. وفي غضون تلك السنوات، دخلت أعداد من الشيعة في وظائف الدولة، باستثناء المجال العسكري الذي ظلّت ابوابه مغلقة بوجه الشيعة، وظلّت الكليات والمعاهد العسكريّة حكراً على السنة حتى ذلك الوقت.<sup>(٢)</sup>

وتماشياً مع السياسة المتبعة منذ أيام الحكم العثماني ومُعظم أيام العهد الملكي وما تبعه من مرحلة الانقلابات والتحوّلات السياسيّة السريعة، ظلّ هناك تقليد سائد يعتبر السنة هم الطبقة السياسيّة الحاكمة في العراق وهم الذين يتحكمون في مقاليد الأمور في هذا البلد. وكانت أي محاولة لكسر هذا التقليد تتطلب جهداً ووقتاً كبيرين وسياسة خاصة قد لا تتوفر مقوماتها إلا عبر عمل انقلابي. لأن الحكومات الضعيفة التي تصل إلى سدة الحكم لا تجد بدأً من انتهاج

(١) فيب مار ٢٢٦-٢٢٧

(٢) المصدر نفسه : ٢٢٩.

سياسات تتماشى مع العرف السياسي القائم والذي يتضمن ضرورة الإبقاء على القاعدة التقليدية آنفة الذكر. وقد أسفر هذا الوضع المغلق عن ظهور ميل ونزعة لدى الشباب المثقف ثقافة أكاديمية أو حوزوية للانتماء إلى أي تيار معارض للنسق السلطوي القائم. وكان هذا هو السبب الرئيسي وراء إقبال الشرائح الشبابية على الانخراط بشغف إلى الجماعات اليسارية وفي مقدمتها الحزب الشيوعي، الذي تمكن من استغلال مشاعر الرفض لدى أبناء الشرائح المضطهدة اجتماعياً واقتصادياً وعلى رأسهم الشيعة، وإقناع هؤلاء الشباب بالانضمام إليه.<sup>(١)</sup> وهذا بدوره يفسر ظاهرة إغراض السنة عن الانتماء للتيارات اليسارية والشيوعية، لأن شباب السنة ينتمون في الغالب إلى الأعيان والنخبة الاجتماعية ذات النزعة اليمينية الحريصة على المحافظة على الأوضاع كما هي.<sup>(٢)</sup>

إن تمتع السنة بهذه المزايا دفع بعض الشيعة إلى تمنى تغيير هويتهم وانتمائهم المناطقى عسى أن يشفع لهم ذلك في تحسين ظروفهم المعاشية، وقد عبّر بعض الشعراء الشعبيين عن تلك الرغبة بقوله

لو عندي ذرة من العقل      جا بذلت جنسيتي  
جان أصبحت عاني الأصل      جا سجّلت تكرّمتي!<sup>(٣)</sup>

(١) المصدر نفسه ١٦١ يشار إلى أن مؤسس الحزب الشيوعي في العراق هو الرقيق فهد - من الكلدان - بينما تصف أعضاء اللجنة المركزية للحزب من الشيعة وسائر الأقليات .

(٢) الشعراني : ١٣٨ .

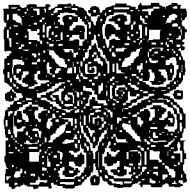
(٣) الشعراني : ١٣٩ .



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

## الفصل الثالث

---



---

تنامي حضور الإيرانيين في العراق  
مطلع القرن العشرين



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

ثمة تقرير مفصل يشير إلى تنامي هجرة الإيرانيين إلى العراق بدءاً من العام ١٩٢٦ واستقرارهم هناك لأسباب متنوعة حاول التقرير إجمالها بما يلي :

١ - الزوار الإيرانيون الذين يأتون إلى العتبات المقدسة وبيقون فيها بداعي الفقر والحاجة أو بقصد العيش إلى جوار الأئمة.

٢ - التجار الإيرانيون الذين اختاروا بغداد والكاظمية كمناطق مناسبة للنشاط التجاري فاستوطنوا فيها.

٣ - أعداد غفيرة من عرب خوزستان من موالى الشيخ خزعل غير الحائزين على جوازات إقامة إيرانية قرروا الاستيطان جنوب العراق وفي أطراف البصرة، وذلك لتوفر فرص عمل مناسبة في تلك المناطق بفعل الحرب العالمية الأولى. والحاصل ؛ إن جمعاً غفيراً من الإيرانيين اتخذوا العراق محل إقامة دائمية لهم، وهؤلاء المهاجرون منهم من حافظ على هويته الثقافية ولغته الفارسية، فيما تخلى البعض الآخر منهم مع مرور الزمن عن ثقافته ولغته.

ويضيف التقرير : (منذ أمد بعيد يقصد الإيرانيون العراق لزيارة العتبات

المقدسة سنوياً، وفي الأعوام الأخيرة يبلغ تعداد هؤلاء الزوار أربعين إلى خمسين ألف زائر سنوياً. وقد يمتنع البعض منهم عن العودة إلى وطنهم الأصلي لأسباب عديدة؛ منها الخوف أو الافتقار إلى المال اللازم لرحلة العودة، أو بقصد المكوث إلى جوار الأئمة وأحياناً كثيرة لدواعٍ اقتصادية وتجارية لتوفر فرص العمل ووسائل التجارة في بلاد ما بين النهرين.

ولعلّ عُشر هؤلاء الزوار الإيرانيين يصرفون النظر عن فكرة الرجوع، وبالتالي فإن الإيرانيين المقيمين في العراق يشكّلون الآن ثقلًا اجتماعياً مهماً، وهم يمثلون أغلبية السكان في جميع المدن المقدسة.

وفي موضع آخر من التقرير الموماً إليه أشار إلى هجرة العرب الإيرانيين إلى جنوب العراق واستقرارهم في أطراف مدينة البصرة، يقول: (أغلب التجار الإيرانيين الكبار سكنوا بغداد والبصرة والمراكز المدنية الأخرى، وهناك مبادلات تجارية ومالية بين العراق وإيران تتم سنوياً بواسطة هؤلاء التجار).

ويضيف التقرير (إن عدداً كبيراً من الفلاحين والمزارعين والعمال والكسبة والتجار والكتاب والأدباء والحرفيين ومستخدمى الدولة هم من التبعة الإيرانيين وقد انتشروا في مختلف مناطق العراق ويشكّلون الآن مركز ثقل مهم، كما إن هناك مدناً كالنجف وكربلاء والكاظمية وخانقين أصبحت ذات أكثرية إيرانية بحيث إن لغة التخاطب بينهم هي الفارسية، وربما بلغ إجمالي عدد الإيرانيين في العراق زهاء نصف مليون نسمة)<sup>(١)</sup>

طبعاً، لا تبدو هذه الأرقام دقيقة، لأن إحصائية دقيقة أجريت في النجف الاشراف في مايس ١٩٢١ أفادت ان (٥٤٠) إيرانياً فقط هم عدد الحاصلين على إقامة رسمية في هذه المدينة، بينما في إحصائية رسمية أخرى أجراها الانكليز عام ١٩١٩ م أشار إلى وجود (٨٠٠٠٠) مواطن إيراني في العراق ! إن هذا التفاوت الفاحش في الأرقام يكشف حدسية هذه الإحصائيات، وذلك لغياب الشروط اللازمة لإجراء إحصائيات علمية دقيقة.

أضف إلى ذلك أنه - ولاعتبارات مختلفة - كان الإيرانيون يخفون هويتهم الحقيقية أحياناً، وأحياناً أخرى يحصل العكس حيث يدعى بعض العراقيين أنهم إيرانيون !

وتوجد في هذا الصدد إحصائيات صحفية، منها ما أوردته جريدة (الحبل المتين) سنة ١٩٤٠ شاكية من شحة الصحف الفارسية في العراق وأنه توجد صحفية واحدة منها في النجف رغم ان عدد نفوس الإيرانيين المقيمين في العراق يبلغ - حسب الجريدة - مائة ألف نسمة. علماً أن مجلة (العلم) للسيد هبة الدين الشهرستاني لها قراء إيرانيون رغم صدورها باللغة العربية.<sup>(١)</sup>

### الإيرانيون المقيمون في العراق وحقوقهم القضائية

في العشرينيات من القرن الماضي وضعت قواعد الدولة الملكية في العراق، ظهر العراق كدولة خاضعة للانتداب البريطاني، وقد سعت هذه الدولة المتشكلة



إلى تشريع قوانينها ونظمها الخاصة في ضوء التجارب السياسية والدستورية التي مرّت بها الشعوب الأخرى. وكانت إحدى مشاكل العراق المهاجرين الإيرانيين الذين تتراوح تقديراتهم ما بين مائة ألف إلى ثلاثمائة ألف.<sup>(١)</sup>

وفي تلك الفترة كان هناك نظام حصانة للأجانب الموجودين في العراق وبخاصة البريطانيين منهم. وقد حرصت الدولة العراقية على استثناء الإيرانيين المقيمين في العراق من شمولهم بهذا القانون؛ الأمر الذي أثار جدلاً ونزاعاً سياسياً بين الدولتين. تقول إيران إن المواطنين الإيرانيين يقعون ضحية تعسف المحاكم المحلية في العراق، والكثير من هؤلاء أشخاص محترمون ما بين عالم وتاجر. ففي مذكرة رفعتها القنصلية الإيرانية في النجف جاء ما يلي

(إن مواطني الدولة العلية في أرض ما بين النهرين هم جميعاً من التجار وأصحاب رؤوس الأموال، وممن يعملون في عمران هذه البلاد وتحريك التجارة والزراعة فيها، بل أن المواطنين الإيرانيين يشكلون القسمين من سكان هذا البلد).

وعلى أية حال؛ فإن المسؤولين الإيرانيين كانوا لفترة طويلة يتدخلون في الشؤون القضائية الخاصة بالإيرانيين المقيمين في العراق.<sup>(٢)</sup> والذي يحمله الحكومة الإيرانية على التدخل هو الحالة القومية والتباين المذهبي أو العنصري بين الإيرانيين وأهل البلد. فقد جاء في إحدى الوثائق الإيرانية (إن الخلافات

(١) كوهستاني نجاد ١٢٦-١٥١

(٢) كوهستاني نجاد: ١٢٧-١٢٩.

العنصرية والمذهبية الشديدة التي تعصف للأسف بأوضاع العراق، تجعل الحكومة الإيرانية وجهاً لوجه أمام مسؤولية الحفاظ على سلامة رعاياها وضمان حقوقهم). وقد اقتضت المطالبة الإيرانية في نهاية الأمر على أن تجرى محاكمة الرعايا الإيرانيين على الأقل في محاكم محلية يكون قضاتها من الشيعة وتُترك قضية الاستئناف للمحاكم الخاصة للرعايا الأجانب في العراق).

وعلى ذلك الأمر بتفادي عامل الخصومة المذهبية القائمة في العراق على أشدها بالنسبة للرعايا الإيرانيين.<sup>(١)</sup>

وقد تشكلت بالفعل المحاكم الجعفرية في المناطق ذات الغالبية الشيعية وأنيطت رئاسة هذه المحاكم برجال دين شيعة.

### مسألة التبعية

بعد تأسيس الدولة الملكية في العراق انبثاق الأمل بظهور عراق مستقل ذي حدود جغرافية جديدة ومحددة، رافق ذلك طرح مسألة في غاية الأهمية وهي ماهية (العراقي) وتعريفه. وقد بنى الدستور العراقي الجديد على قاعدة ان العراقي هو الشخص الذي يولد في العراق من أب مولود في العراق أيضاً شرط أن يكون الأب موجوداً في العراق حين ولادة ابنه. وفي ضوء ذلك التعريف اندرج الكثير من الإيرانيين ممن استوطنوا العراق جيلين أو أكثر. وفي ذلك الوقت كان من دواعي الفخر للمرء أن يكون إيرانياً في عراق متخلف. وحين اعتمد المعيار أعلاه في الإحصاء الجديد اعترضت الحكومة الإيرانية والعلماء

الإيرانيين، إذ على أساسه لا يبقى من الإيرانيين المقيمين في العراق إلا نزر يسير، أما الباقي فسيصبحون عراقيين لا محالة. ولقد جاء في مذكرة القنصل الإيراني في النجف في تشرين الثاني ١٩٢٤ أن المسؤولين العراقيين صرحوا بأن (٦٠٠) من الإيرانيين المقيمين في النجف و(٤٠٠) من الإيرانيين المقيمين في الكوفة سيعدون عراقيين في ضوء القانون الجديد.<sup>(١)</sup> ويكمن قلق الحكومة الإيرانية في أن إجراء هذا القانون سيؤدي إلى فقدان إيران لجميع رعاياها في العراق.

من ناحية أخرى، فإن قضية التجنيد الإلزامي لكل من يحمل الجنسية العراقية سيجعل الإيرانيين الذين يحصلون عليها ملزمين بأداء الخدمة العسكرية، وكان ذلك سبباً لاحتجاجات كثيرة توجت بمطالبة آية الله النائيني مخبر السلطنة للتدخل لحل المشكلة.<sup>(٢)</sup>

بالمقابل، كان بعض العراقيين يزعمون أنهم من التبعة الإيرانية تملصاً من أداء الخدمة العسكرية الإلزامية. ولا يمكن إنكار أن من أقدموا على هذا الشيء يشكلون عدداً كبيراً، ولكن المرجح أنه حصل بالنسبة للأسر التي كانت لها جذور إيرانية بعيدة تمتد لأربعة أجيال أو أكثر، ومن ثم تعرّبت، فهؤلاء كانوا يسجلون أنفسهم إيرانيين تفادياً لتسويقهم إلى الخدمة في الجيش العثماني، وبدورها كانت الحكومة الإيرانية تحتّ على هذا الشيء تعضيداً للدور الإيراني في العراق. يقال في هذا الصدد أن أسرة الخالصي كانت من الأسر العراقية التي

(١) كوهستاني نجاد: ١٥٦-١٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ١٥٩.

اكتسبت الجنسية الإيرانية هرباً من الخدمة العسكرية.<sup>(١)</sup> وكانت القنصلية الإيرانية في العراق حريصة على أن يراجعها الرعايا الإيرانيون لإثبات تابعيتهم إلا أن الكثير منهم أحجموا عن ذلك لاستلزامه دفع رسوم مالية.

ويوماً بعد آخر، تدهورت أوضاع الرعايا الإيرانيين في العراق لأن توظيفهم في الدولة بات غير ممكن، كما لم يعد بمقدورهم تملك الأموال غير المنقولة؛ الأمر الذي حدا ببعض لأن يتغلى عن الجنسية الإيرانية ويكتسب الجنسية العراقية.<sup>(٢)</sup> وهذا موقف لم تكن الحكومة الإيرانية تستسيغه أبداً.

إن المهاجرين الإيرانيين في العراق لم يقتصرُوا على العلماء أو التجار المقيمين في الأماكن المقدسة بل إن الكثير من أكراد كرمنشاہ وإيلام الذين كانوا يقطنون الشريط الحدودي بين العراق وإيران هاجروا أيضاً إلى العراق واستوطنوا فيه. وفي الجنوب أيضاً هاجر الكثير من المزارعين والكسبة من العشائر العربية في خوزستان لأجل الحصول على عمل. سنة ١٩٣٨ فقط كان هناك ثلاثة آلاف من هؤلاء يقطنون الكوت مضافاً إلى أعداد غفيرة من العمال ممن يشتغلون في القواعد والثكنات البريطانية في جنوب العراق.<sup>(٣)</sup>

إلا إن الرعايا الإيرانيين المقيمين في التجف وكربلاء اظهروا اعتزازاً بهويتهم الإيرانية، وكانوا يرفعون علم إيران في مواكب العزاء الخاصة بهم. لكنهم واجهوا صعوبات في الاستمرار على هذا النحو في الأعوام (١٩٢٣-١٩٢٨) الأمر الذي

(١) القاسم: ١٥٥

(٢) كوهستانی نجاد ١٦٠-١٦٢.

(٣) المصدر نفسه: ١٦٦.

رفعته القنصليات الإيرانية في مذكرات خاصة إلى طهران. ذات الصعوبات واجهتها جمعية إيرانية خيرية كانت تسعى لمعالجة المشاكل المالية للرعايا الإيرانيين في العراق ومحاولة حلها.

وفي محاولة للضغط على الحكومة العراقية، قامت طهران بمنع زهاب الزوار الإيرانيين إلى العتبات المقدسة، وهذه القضية بقدر ما خلقت من مشاكل وصعوبات اقتصادية لأهالي النجف وكربلاء، أوجدت أيضاً جملة مشاكل للطلبة أدب بالبعض منهم إلى اتخاذ قرار بالعودة إلى إيران وترك الدراسة في النجف، مع ذلك أبدى العلماء استعداداً لتحمل هذه المضاعب ما دامت تصبّ في قناة الضغط على الحكومة العراقية.<sup>(١)</sup>

إن تقاوم مشكلات الإيرانيين في العراق وعدم السبيل لحلها وتسببها في منع المواطنين الإيرانيين من زيارة المراقد في العراق - رغم ما تخللها من فترة ترخيص - كل هذه التطورات أسهمت في ولادة رؤية جديدة في مراكز القرار العليا في إيران، وكان الركن الأول في هذه الرؤية هو تشجيع فضلاء الحوزة على استبدال موطن مراجع التقليد من العتبات العالية في العراق إلى قسم ومشهد المقدسة.

وكان الهدف الأساس من هذا الإجراء هو الحيلولة دون خروج العملة من إيران.<sup>(٢)</sup>

(١) المصدر نفسه ١٦٧-١٦٨، ١٧١.

(٢) المصدر نفسه : ١٧٤.

في غضون تلك الفترة صدر في طهران كتاب (دين وشؤون) لأسد الله المامقاني والذي تضمن توصية بتحويل قم ومشهد إلى مركز لاستقطاب المراجع لتفادي خروج العملة الإيرانية إلى الخارج.<sup>(١)</sup>

من الناحية المبدئية كان رضا شاه مناوئاً لذهاب الإيرانيين لزيارة العتبات، وذلك في سياق مخالفته للشعائر والطقوس المذهبية، وكان يعبر عن ذلك من خلال وضعه العراقيل في طريق التواصل برّياً أو عبر البريد والبرق والهاتف؛ الأمر الذي أدى إلى تراجع عدد الزوار بشكل حاد، أعقب ذلك الحد من نفوذ المراجع المقيمين في العتبات وتأثيرهم على مسار الأوضاع في إيران، وهو ما نسّط عليه الضوء أكثر لدى الحديث عن حقبة التصدي للمرجعية من قبل آية الله المرحوم السيد أبو الحسن الأصفهاني.

### التخلي عن التبعية الإيرانية من قبل بعض الإيرانيين

في تقرير تمّ إعداده في تموز ١٩٥٢ حول أوضاع الإيرانيين في العراق، إن جمعاً كبيراً من الإيرانيين المقيمين في العراق منذ جيلين أو ثلاثة، وعلى أثر الإقامة الطويلة جداً في بيئة اجتماعية وثقافية محلية، واحتكاكهم المستمر بأبناء البلد (العراق)، لم يعد لديهم من إيران سوى الاسم، والعراق الآن بالنسبة لهم هو الوطن الحقيقي الذي لا يفكرون بالتخلي عنه لأي سبب كان. معظم هؤلاء لا يتقنون من الفارسية حتى كلمة واحدة، وقد تمكّنوا من الحصول على فرص عمل

في دوائر الدولة العراقية ومؤسساتها، ويتقاضون رواتب شهرية يتدبرون بها أوضاعهم المعاشية... لقد هجر أولئك مواطنهم الأصلي (إيران) ولم يكن بوسعهم إلا ذلك لأنّ عودتهم إلى إيران تعنى التضحية بكل شيء، والقانون العراقي في هذا المجال قانون متداول ومعمول به في كل بقاع العالم ومنها إيران ولا غبار عليه من هذه الناحية، لذا نوصي الحكومة الإيرانية بعدم متابعة موضوع تابعة هؤلاء، والأفضل لحلّ هذه المشكلة أن تتبنى الدولة الإيرانية قانون الجنسية المزدوجة لتعمد الطريق أما عودة الأجيال القادمة من هؤلاء إلى الوطن الأم.<sup>(١)</sup>

يشار إلى أن هذا الأمر لم يتمّ تشريعه في إيران إلى يومنا هذا.

إنّ التشدد في توفير فرص العمل للأجانب في العراق أفضى إلى اكتساب حوالي ٥٦ ألف إيراني مقيم في بغداد والكاظمية، الجنسية العراقية حتى عام ١٩٣٦ م وفق ما ورد في تقرير بهذا الشأن. وبالطبع كان قراء الإيرانيين يعانون من صعوبات جمّة في الحصول على الجنسية العراقية، بخلاف الأثرياء منهم.<sup>(٢)</sup>

وحتى ذلك الحين، كان عدد العراقيين في العراق كبيراً. ففي إحصائية عام ١٩٣٦ شغل الإيرانيون نسبة العشر من سكان بغداد (٤٠ ألف إلى ٤٠٠ ألف). وفي سامراء ذات الـ (١٥) ألف مواطن يوجد ألف إيراني هناك، وفي الكاظمية سبعة آلاف إيراني من مجموع أربعين ألفاً، وفي البصرة حوالي (٧٥٠٠) مواطناً إيرانياً.<sup>(٣)</sup>

(١) كوهستاني نجاد : ٢٥٦

(٢) المصدر نفسه ٢٤١

(٣) المصدر نفسه : ٢٤٠-٢٥٨.

ومع حلول عام ١٩٣٩ وبعد مضيّ سنواتٍ على مسعى الحكومة العراقية إصلاح الأوضاع في العراق، قدم مشروع إلى الحكومة العراقية تضمّن التأكيد على النقاط الآتية وأهمها ما يلي: (بالنظر للبحوث والدراسات التي أجرتها الحكومة العراقية على مدى سنوات، بشأن الرعايا الإيرانيين، فإن عدداً من الإيرانيين تخلّوا عن جنسيتهم، وقد اعتبرتهم الحكومة الإيرانية رعايا عراقيين بموجب المادة (١٠) من القانون المذكور).<sup>(١)</sup>

بالرغم من ذلك، فإن عدد الإيرانيين الذين ما زالوا محافظين على جنسيتهم الأصلية حتى بعد مضيّ عدة أجيال على إقامتهم في العراق، يشكّلون نسبة كبيرة وقد شرّعت هذه اللائحة من أجل حلّ مشاكلهم.

### الأسر العربية والفارسية

كنتيجة لهذا الأخذ والردّ بشأن وضع الإيرانيين المهاجرين في العراق، انقسمت بعض الأسر الكبيرة المعروفة في العراق إلى شطرين : عراقي وإيراني. وهذا الأمر شمل أسراً ذات أصول إيرانية وأسراً أخرى ذات أصول عربية. فانشطرت أسرة الجواهري مثلاً في العقود الأخيرة إلى شعبتين إحداهما حملت الجنسية العراقية والأخرى حملت جنسية إيرانية. فالشيخ عبد الرسول الجواهري وولده الشيخ محمد تقى الجواهري وأحفادهم اكتسبوا جميعاً الجنسية الإيرانية بينما يعدّ محمد مهدي الجواهري الشاعر العربي الكبير شخصية عراقية.



نفس الأمر ينطبق على أسرة الشهرستاني التي تقلد بعض أفرادها الآن مناصب وزارية في العراق، في حال تجنّس بعضهم بالجنسية الإيرانية نظير السيد عبد الرضا الشهرستاني وأولاده والذين تعرضوا لضغوط كبيرة إبان عمليات التهجير القسري للإيرانيين من العراق.

ولعل أحد الأسباب وراء تمسك بعض الأسر بالجنسية الإيرانية يعود إلى دواعٍ مذهبية على اعتبار إن إيران هي الدولة الشيعية الوحيدة.

بالمقابل، ثمة عوائل ذات أصول إيرانية مؤكدة إلا أن جميع أبنائها أصبحوا عراقيين ومن بين هذه الأسر والعوائل أسرة آل الحكيم. فيما هناك أسر ذات أصول عراقية استوطنت إيران لفترة ثم عادت إلى العراق، والحقيقة التي يجب أن يقال هنا هي ان التردد بين العراق وإيران ذهاباً وإياباً كان أمراً طبيعياً، خاصة الفترة السابقة على ظهور الدولة الصفوية، إذ لم تكن هناك حدود فاصلة بين الدولتين بالمعنى المتعارف عليه الآن.

وفي هذا السياق، يمكن الإشارة إلى آل الخالصي؛ الأسرة المعروفة بأصولها العراقية ولكنها اكتسبت الجنسية الإيرانية تملصاً من أداء الخدمة الإلزامية في الجيش العثماني.

### المدارس الإيرانية في العراق

يمكن القول بصورة عامة، إن اجراءات السابقة المشار إليها آنفاً لم تمنع الكثير من الأسر الإيرانية العريقة من الحفاظ على هويتها، كما أن استمرار بعض دواعي الهجرة واستقرار الإيرانيين في الأراضي العراقية بقصد التجارة أو

التحصيل في المدن المقدسة أبقى على أعداد الإيرانيين المقيمين في العراق في حالة تزايد أو ثبات.

وبسبب هذا الحضور المكثف للإيرانيين في العراق، تأسست مدارس إيرانية عديدة في مختلف مدن العراق، وكان تأسيس أول مدرسة إيرانية في النجف على خلفية الحركة المشروطية وبإشراف مباشر من الميرزا مهدي نجل آية الله الخراساني، وقد حملت اسم (المدرسة العلوية)، ومن ثم أضيف إليها وصف الإيرانية لتصبح (المدرسة العلوية الإيرانية) وذلك بعد أن تكفلت الحكومة الإيرانية بتأمين نفقات الدراسة فيها. وهناك مدارس أخرى على هذا النمط مثل (المدرسة الحسينية) في كربلاء، ومدرسة (الإخوة والشرف) في بغداد والكاظمية.

وقد تبنت الحكومة الإيرانية نفقات هذه المدارس من الألف إلى الياء.<sup>(١)</sup>

وما بين العامين ١٩٣٠-١٩٣١ تم تأسيس مدارس أخرى في بغداد والكاظمية والبصرة وكربلاء والنجف. وكان مجموع الطلبة الإيرانيين الذين يرتادون هذه المدارس في تلك الأعوام (١٩٠) تلميذا في النجف الاشرف و (٣٨) في البصرة. وفي تقرير آخر ان عدد التلاميذ (١٢٣) في كربلاء و(١٥٧) في النجف و (١٠٨) في مدرسة الشرف ببغداد.<sup>(٢)</sup> وكانت المدرسة الحسينية في كربلاء تعدّ واحدة من أفضل المدارس الابتدائية في العراق.

(١) ساسي : ٤٨-٤٩

(٢) كوهستاني نجاد : ٢٤٢-٢٤٤.

ومع مجيء حزب البعث إلى السلطة في العراق، حمل معه نظرة سلبية جداً تجاه المدارس الإيرانية وقد ألف أحد المسؤولين في العراق كتاباً عام ١٩٨٤ حمل عنوان (المدارس اليهودية والإيرانية في العراق)، خصص الفصل الأول منه للحدوث عن المدارس اليهودية، وخصص الفصل الثاني للمدارس الإيرانية بينما خصص الفصل الثالث لمقارنة بين الاثنين. تمّ تأليف الكتاب في السنين الأولى للحرب العراقية الإيرانية، وفيه تجلّت بوضوح النزعة القومية الشوفينية.<sup>(١)</sup>

وكانت الفكرة المركزية للكتاب أن حزب الدعوة انطلق في نشاطه من المدارس الدينية والمدارس الإيرانية التي أورد قائمة بأسمائها وأمكنتها، مشيراً إلى استمرار فعالية هذه المدارس إلى وقت قريب

- مدرسة الإخوة الابتدائية في الكاظمية، وكان فيها عام (٧٠-٧١) ٦٥١ تلميذاً بينهم الهندي والأفغاني والباكستاني.

- المدرسة الحسينية في كربلاء (ابتدائية ومتوسطة)، درس فيها عام (٧٥)- (٧٦) ٧٢٩ تلميذاً وطالباً و ٤٦٠ تلميذة وطالبة.

- المدرسة العلوية في النجف (ابتدائية ومتوسطة) بلغ عدد تلاميذها ١١٤٨ تلميذاً للعام الدراسي ١٩٧١م.

- مدرسة الشرافة الابتدائية والمتوسطة في بغداد، تأسست عام ١٩١٣، وصل

(١) هذا التوجه ترك أثره المشهود حتى على المسائل التاريخية، فقد ألف شخص يدعى عبد الحميد العلوجي كتاباً بعنوان (الكذبة الفارسية يفضحها الحق العربي)، زعم فيه أن والده الامام السجاد لم تكن جارية فارسية بل سيدة عدنانية فرسية واسمها ام اسحق بنت طلحة بن عبيد الله التميمي صدر الكتاب في العراق عام ١٩٨٧ م. وقد تصدى لنفذه نبيل الكرخي على موقعه في الانترنت.

تلاميذها عام ٧١ إلى ٣٩٠ طالباً وطالبة.

وعدّد المؤلف مدارس أخرى تأسست في العراق أيام العهد البهلوي كالمدرسة البهلوية ومدرسة شاهبانو ومدرسة ثريا.<sup>(١)</sup> وفي خاتمة الكتاب أورد مؤلفه - وهو مسؤول أمني كبير - جميع المعلمين والفراشين والكتاب والموظفين في المدارس المذكورة وبلغ عددهم ٥٥٣ إيرانياً. كما ألمح إلى أن معظم المناهج كانت تدرس باللغة الفارسية.

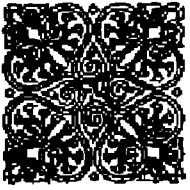
### دفاع الدولة الإيرانية عن شيعة العراق

نظراً لكونها الدولة الشيعية الوحيدة في العالم، لم تقتصر إيران على مصالح رعاياها في العراق، بل كانت تتدخل في بعض الأحيان لحماية مصالح شيعة العراق، على اعتبار أن الحكومة الملكية في هذا البلد كانت سنية المذهب رغم ما تبديه أحياناً من مداراة للشيعية. من ذلك محاولة الحكومة العراقية أيام تولى السيد محمد الصدر لرئاسة الوزراء أن يقيم الشيعة من العرب والعجم مواكب العزاء بحضور ملك العراق، وقد جوبه هذا الطلب برفض العجم ما أثار بعض المشكلات في هذا الصدد. وقد جاء في مذكرة وقعها القنصلية الإيرانية في البصرة ما يلي لما كان الشيعة يشكلون الغالبية من سكان العراق ومراجعهم هم العلماء الأعلام. وجلّ هؤلاء بل كلّهم إيرانيون بالفعل أو بالأصل، فإن الحكومة العلية في إيران تعتبر نفسها المدافع الطبيعي لرعاياها ولجميع الشيعة، يتعين عليها

من الناحية السياسية وظائف والتزامات لا بدّ من الإيفاء بها حسب توجهات أولياء الأمور في المملكة الإيرانية.<sup>(١)</sup>

## الفصل الرابع

---



---

المرجعية الشيعية في العراق وإيران



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

## المرجعية العامة

إن طبيعة المرجعية القائمة على أساس العقيدة الدينية والمذهبية حررتها من الإطار القومي والعنصري واضفت عليها طابعاً أمةً. ويعدّ هذا الأمر ركناً أساسياً في كل مرجعية دينية أو مذهبية ولا يختص بالشيعة، ويشهد لهذا تاريخ المرجعية في الماضي والحاضر التي تداولتها شخصيات عربية - كالسيد الحكيم - وأخرى إيرانية - كالسيد الخوئي - وكان لكليهما نفوذ كبير بين القطاعات الشعبية من العرب أو من العجم. مع ذلك، لا يمكن إنكار تأثير المسألة القومية في هذا الجانب من الأساس.

والملاحظة الجديرة بالاهتمام بخصوص المرجعية الشيعية هي إنها ظلّت على ارتباط وثيق بإيران حكومة وشعباً منذ بروز إيران كدولة شيعية وحيدة في القرون الخمسة الأخيرة ومع إن المرجعية الشيعية لم تعد من لمسات إيرانية طيلة هذه الفترة، إلا أن قوة الوجود الشيعي في العراق وبعض البلدان العربية الأخرى كانت السبب وراء بروز عدد لا يستهان به من العلماء الشيعة الأفاضل ممن تخرجوا من الحوزات العلمية العربية. واللافت أن العقود الأخيرة شهدت



ظهور مراجع تقليد من بين شيعة الهند والباكستان وسوريا رغم قلة أعداد الشيعة في هذه البلدان.

ولكن عموماً، هناك تصور خاطئ مفاده ان المرجعية الشيعية كانت حكراً على الإيرانيين على طول التاريخ. وهذا التصور لا ينسجم مع الحقائق التاريخية الثابتة والجلية والتي نعرفها بشأن توزع مراجع الدين على مختلف المراكز العلمية في إيران والعراق، ولا بدّ من العمل على تصحيح هذا التصور الأثر.

عام ١٩٦٦م أعدّ بعض المحققين إحصائية حول ٥٨ مجتهداً شيعياً كبيراً على مدى ألف عام من تاريخ الاجتهاد والتقليد لدى الشيعة أسفر عن النتائج التالية:<sup>(١)</sup>

#### من حيث المكانة

- من (٥٨) مجتهداً (٣٤) مجتهداً إيرانياً و(٢٤) عربياً.
- من (٢٤) مجتهداً عربياً (١٦) عراقياً وسبعة سوريون وواحد من عمان.

#### من حيث المكان

.. (٤٠) منهم درسوا في العراق.

- (١٤) درسوا في إيران.

- (٤) في مناطق متفرقة.

وبعد الحصول على رتبة الاجتهاد استوطن من هؤلاء

- (١٨) في إيران

- (٦) في سورية

(١) وكيلي في، أبو محمد، التشكيلات المذهبية للشيعة، جامة طهران، ١٩٦٦.

- (٣٤) في العراق

وتقول بشكل عام : إن المرجعية الشيعية نوع من الرابطة الأممية - لا الدولية - مردها إلى الحضور الشيعي القوي بين القوميات العربية والفارسية والكرديّة والتركيّة والباكستانية والهندية، وبالتالي فإن الزعامة فيها ذات طابع أممي يتخطى الحدود القومية والوطنية. ولكن حيث ثبت بالتجربة أن ثمة تقاطعاً بين المصالح الأممية والقومية والوطنية، نشأ التصور بلزوم أن تكون المرجعية الشيعية إيرانية أو عربية أو تركية أو غير ذلك.

وهذا التصور وليد جذوره الوطنية والقومية أكثر مما هو ناجم عن مقتضيات الواقع الشيعي بذاته. والشاهد الجليّ على صحة ما نذهب إليه هو طبيعة المواقف التي تصدر عن المرجعيات الشيعية بمختلف أدوارها وأشكالها وانتماءاتها حيال القضايا والتحديات السياسية والاجتماعية التي تمصف بالأمة بين حين وآخر، والتي لا تختص ببلد معين. على سبيل المثال الأنشطة السياسية التي قام بها شيخ الشريعة الأصفهاني الذي تصدى للمرجعية بعد وفاة الميرزا محمد تقي الشيرازي، فنظرة عابرة على مواقفه من خلال البيانات التي اصدرها في المناسبات المختلفة تميّط اللثام عن طبيعة الهمّ الإسلامي العام الذي كان يحمله :

- بيانه في الدعوة إلى وحدة المسلمين للوقوف بوجه الاعتداء على الأراضي

الإسلامية عام ١٩١٠ م.

- إعلانه الجهاد ضد روسيا القيصرية لتجاوزها على إيران عام ١٩١١ م.

- إعلانه الجهاد ضد العدوان الإيطالي على ليبيا عام ١٩١١.

- الوثائق المتعلقة بالحرب في العراق عام ١٩١٤.

- الوثائق المتعلقة باحتلال العراق من قبل الانجليز خلال الأعوام ١٩١٤-

١٩٢٠ م.

- وثائق ثورة العشرين في العراق. <sup>(١)</sup>

خلال ثورة العشرين كان قادة العشائر العربية يأنمرون بأوامر المرجعية الشيعية دون أن يخطر في بال احد منهم ان هذا المرجع عربي أو فارسي، مما يدل على طبيعة هذه الزعامة. ونفس الكلام يتكرر لدى الحديث عن مرجعية السيد محمد كاظم اليزدي أو محمد حسين الثانيين.

في ذلك الوقت، كان من الطبيعي أن تكون معرفة هؤلاء المراجع مقصورة على المحيط الذي يعيشون فيه، نظراً لضعف وسائل الاتصال، وبالتالي فإن تأثيرهم يكون محدوداً بهذا المحيط ولا يتعداه إلا نادراً. وقد كان لحالة الاضطراب السياسي التي عمّت العراق في سني ما بعد الحرب العالمية الأولى وانهيار الدولة العثمانية أثر عميق في ذلك.

### المرجعية والقضايا القومية

مع ما ألمح اليه آنفاً من أن المرجعية من الشؤون التي تجاوزت الأمر القومية والوطنية، إلا أن ذلك لم يحل دون أن تخضع عملية اختيار المرجع لاعتبارات قومية، فبُعيد وفساة الشيخ مرتضى الأنصاري عام (١٢٨١ هـ/ ١٨٦٤ م)، كان للمرعية أربعة مرشحين : الميرزا حسن الشيرازي،

(١) الجبوري ، شيخ التريفة : ١٠٧ .

والميرزا حبيب الله الرشتي، والشيخ محمد حسين الكاظمي، والسيد حسين الكوهكمرى، وقد اتجه العرب نحو الكاظمي، واتجه الترك نحو الكوهكمرى، بينما توزع الفرس على مرجعية الشيرازي والرشتي<sup>(١)</sup> وهذا يشير بوضوح إلى أن الدوافع القومية لم تكن عديمة التأثير.

وابان العهد القاجاري والحكم المظفري على وجه التحديد ونظراً لهيمنة الأتراك واتساع نفوذهم في البلاط القاجاري، آلت المرجعية في إيران إلى فاضل الشرياني والشيخ محمد حسن المامقاني فيما تراجع النفوذ المرجعي لكل من الميرزا حسين والآخوند الخراساني إلى المرتبة الثانية إلى أن توفي الأولان وباتت الطريق معبدة أمام مرجعية الخراساني<sup>(٢)</sup>.

والواقع أن هذا الأمر لا يمكن أن يحس برمته في خاتمة الاعتبارات القومية بقدر ما أن للمعرفة المناطقيّة أثرًا في هذا الصدد. ففي زمان مرجعية آية الله الحكيم ظلّت محافظة خراسان مقفلة على مرجعية آية الله الشاهرودي (على اعتبار أن شاهرود من مدن خراسان). وكان للاختلاف بين العرب والعجم في اختيار مرجع التقليد وفي التأثير على المواقف السياسية أهمية ملحوظة، حتى قيل إن العرب الشيعة في النجف كانوا على علاقة سلبية بالحركة الدستورية المشروطة في إيران التي كانت موضع تأييد الطلاب الإيرانيين المقيمين في النجف. وقد عزا أحد الكتاب هذا الموقف لشيعة العراق حيال الحركة المذكورة

(١) الوردي: ٨٧٣.

(٢) ألت: ٢٤٨ - ٢٥١.

إلى التركيبية النفسية العربية التي تقاوم التغيير والتحول.<sup>(١)</sup> ولا يخفى ما في هذا الرأي من تطرف.

### التركيب القومي لحوزتي النجف وكربلاء

للنجف ثلاث خصائص تستهوي الإيرانيين الشيعة؛ الأولى وجود مرقد الإمام علي عليه السلام والثانية كونها الحاضرة العلمية الكبرى للشيعة ومركز تواجد العلماء والمجتهدين. والخصيصة الثالثة وجود مقبرة وادي السلام التي تشجّمهم على البقاء في النجف والموت فيها!

إن القسم الأعظم من الإيرانيين الذين قصدوا العراق واستوطنوا فيه كان هدفهم التحصيل العلمي في هذه الحاضرة الشيعية التي يبلغ عمرها زهاء ألف عام. الكثير من هؤلاء عادوا إلى مسقط رأسهم بعد حصولهم على رتبة الاجتهاد. والبعض بلغ حدّ المرجعية أو ما يقرب منها من المواقع العلمية، فيما عكف البعض الآخر على مزاولة التدريس فيها. أغلب هؤلاء من الإيرانيين والقليل منهم من العرب.

إن إحدى أهم الوسائل لمعرفة الانتماء القومي لهؤلاء هو ألقابهم المنطقية التي كان يظهر منها بجلاء انتسابهم إلى إيران، مضافاً إلى أن إلقاء نظرة على سيرة حياة كل واحد من هؤلاء تسلط الضوء الكافي لمعرفة ان هذه الشخصية تنتمي لأية منطقة.

في تقرير عن المدارس الدينية في كربلاء عام ١٩٢٦ م وردت أسماء أربع

مدارس مع مدرّسها على النحو الذي يشير إلى ان جميع الاساتذة من الايرانيين : (مدرسة حسن خان وأساتذتها الشيخ سعيد الفارسي والسيد سعيد التنكابني والشيخ محمد تقي الأصفهاني والميرزا يحيى الزرندي. اما المدرسة الهندية فقد كان يدرس فيها كل من الشيخ محمد علي القمي والسيد حجي آغا مير، ومدرسة صدر الدين الشيرازي ويدرس فيها الشيخ موسى الكرمنشاهي، ومدرسة الشيخ مهدي وفيها من المدرسين الشيخ محمد حسن المازندراني).<sup>(١)</sup>

ويقال بشكل عام ان مدينة كربلاء لم تكن تحمل طابعاً عربياً، نظراً لكثرة الرعايا الإيرانيين المقيمين فيها أكثر من النجف. وكان يتحدث بالفارسية أمراً معهوداً في كربلاء بالقياس إلى النجف التي حافظت على طابعها العربي أكثر حتى ان بعض الإيرانيين الذين يستوطنون في النجف يقومون بعد مدة من الزمن بارتداء الكوفية والعقال بالعربي ويتحدثون العربية. ويقال ان صدام تحدث ذات يوم خلال حملات التسفير - وقال إنه مر بأسواق كربلاء فوجد أصحاب المحال التجارية فيها يتبادلون الحديث بالفارسية وكأن المدينة مستعمرة . ومعلوم أن المتحدث بالفارسية كان شيمة المناطق ذات الأغلبية الإيرانية من حيث النفوس، وهذا الكلام يصدق حتى على بعض محلات النجف.

أما أطراف المدينة سواء في كربلاء أو النجف، فكانت اللغة المتداولة بينهم هي العربية لكون أغلبهم من العرب. ولقد كان للدعاية البعثية أهدافها الخاصة في الإيحاء بأن الحوزة في النجف تفتقر إلى الهوية العربية بل أكثر من ذلك اتهام

(١) كوهستاني بجاد ٨٦ ، وقد تحفظ الأستاذ جلال علي ما ورد في هذا التقرير متبراً انه لا يعكس واقع الحال خاصة في حوزة كربلاء القليلة الطلاب والتي يبدو الوجود العربي فيها واضحاً .

السكان القاطنين في المدن المقدسة بأنهم إيرانيون. وفي أيامنا هذه، فإن الكثير من علماء النجف ينتمون إلى أسر وقبائل عربية مشهورة، نظير (آل القرشي) الذين كانت بينهم شخصيات معروفة في القرنين التاسع عشر والعشرين وهم من عشيرة الجعافرة من بطون ربيعة.<sup>(١)</sup>

وثمة أيضا وجوه من أسر اخرى مثل آل الاسكافي وآل شكر وآل كعب وآل الأعمش ( من عشيرة زبيد من عوف من مسروح من حرب من بطون مضر)، وكذلك آل محيي الدين وآل الطريحي وآل عيسى (من سكنة السماوة)، وآل العنيزي<sup>(٢)</sup> وآل الدجيلي وآل شبر<sup>(٣)</sup> وآل عبد الجبار والبداوية والعدالي والخرسان وخمايسي والجبور وآل خدام<sup>(٤)</sup> وغيرهم من القبائل العربية التي برز منها علماء دين في القرن التاسع عشر.

في هذه الفترة، نشط العديد من علماء البحرين في العراق وهم عرب رغم ترددهم على إيران أحيانا، ونظرة عابرة على سيرة العلماء الشيعة في القرن الثالث

(١) آقا بزرك، الكرام، ٦٩٠.

(٢) كانت قبيلة عنزة في وقت من الأوقات في منطقة الدرعية وزعيمهم وطبان الذي حكم تلك المنطقة عام ١١٢٣ هـ إلى أن قتل عام ١١٣٩ هـ. ومن عشائرتهم آل لبيب الذين يرجعون إلى آل مانع النجدي، وقد هاجر قسم من آل لبيب إلى سوق الشيوخ واستقرو هناك، وقصد شيخهم عبد علي لبيب وابنه النجف ام ١١٨٧ م لغرض الدراسة، وكان يتردد على عشيرة الأخلاف في البصرة حتى توفي عام ١٢٠٦ هـ. هذه القصة دليل على هجرة بعض القبائل الشيعية العربية من نجد إلى العراق أو إقامتهم هناك وتغيير مذهبهم، ناهيك عن تشيع بعض القبائل العربية في نجد والحائل قبل ظهور الوهابية انظر (عبد الكريم محمد علي) تاريخ مدينة سوق الشيوخ (بغداد، ١٩٩٠) ص ٢٠٦-٢٠٨.

(٣) آل شبر من السادة وأصلهم من الحلة، انظر آقا بزرك، الكرام، ٥٦٥.

(٤) آل خدام من آل شبيبة وهم من باهلة وهي قبيلة من قبس عيلان والعالم المقصود هو الشيخ خضر العفكاوي، ولد في عفاك بين دجلة والفرات.

عشر الهجري كما أوردها آقا بزرك في كتاب (الكرام البررة) تؤيد وجود نسبة كبيرة من علماء البحرين ممن يحملون القاباً مناطية ويتنسبون من خلالها إلى مناطق متفرقة في البحرين من قبيل: الخطى والتوبلى والماحوزى والعصفورى والشوبكى والبلادى والغريفى، والأعم من ذلك كله لقب البحرانى الذى كان من الألقاب المميزة لعلماء القرن الثالث عشر، على غرار انتساب علماء لبنان فى حوزة النجف إلى جبل عامل وانتساب علماء المنطقة الشرقية بالجزيرة العربية إلى الإحساء والقطيف.

وفى ضوء ذلك يمكن تصنيف مكونات الحوزة العلمية فى النجف بحلول

عام ١٩٥٧ م إلى ما يلى

- البحرين والقطيف والإحساء ٢٠

- سورية ولبنان ٤٧

- الهند وكشمير: ٧١

- هضبة التبت : ٣٢٢

- العراق ٣٢٠

- إيران ٨٩٦<sup>(١)</sup>

أهم مراجع التقليد فى فترة الهيمنة العثمانية على العراق

يبدأ العصر الأخير للمرجعية الشيعية مع مرجعية الوحيد البهبهانى الذى تولى



منصب المرجعية للفترة (١٧٦٠-١٧٩١). وحتى ذلك الحين كانت المرجعية تحمل مفهوماً علمياً أكثر من كونها منصباً لإدارة شؤون الشيعة. وبعبارة أخرى؛ كان المرجع هو الأستاذ الذي يفوق الجميع في مقدرته العلمية والاجتهادية دون أن يشترط في ذلك أن يرجع إليه كل الشيعة أو جلهم في التقليد. وهو الشيء الذي تبلور لاحقاً إثر تطور وسائل الاتصال وخاصة البريد والبرق، حيث لعبت هذه الوسيلة دوراً بناءً في تمكين الإيرانيين من التواصل بشكل منتظم مع مراجعهم في العتبات المقدسة.<sup>(١)</sup>

وبعد رحيل الوحيد البهبهاني تولى عدد من طلابه مقام المرجعية تباعاً السيد محمد مهدي بحر العلوم (م ١٢١٢ هـ) والشيخ جعفر كاشف الغطاء (م ١٢٢٨ هـ) - في النجف - والسيد علي الطباطبائي (م ١٢٣١ هـ) في كربلاء. ومن بين هؤلاء الثلاثة كان الشيخ جعفر كاشف الغطاء<sup>(٢)</sup> مجتهداً عربياً بلغ القمة في زمانه من الناحية العلمية، وله طلاب بارزون كصاحب الجواهر وحجة الإسلام الشفتي. وقد توفي كاشف الغطاء سنة ١٢٢٨ هـ وقد رشح السيد بحر العلوم الشيخ جعفر لتولي مقام الإفتاء بعيد رحيل الوحيد البهبهاني.

في هذه الأثناء، كانت المرجعية في إيران تتوزع بين الملا احمد النراقي (م ١٢٤٥ هـ) والميرزا القمي (م ١٢٣١ هـ) فيما قدم السيد محمد المجاهد (م ١٢٤٢ هـ) من كربلاء إلى إيران للاشتراك في الحرب الروسية - الإيرانية في

(١) النقاش ٩٧، منظور الأجداد ٥.

(٢) وهو الشيخ جعفر بن الشيخ خضر بن يحيى بن سيف الدين المالكي من بني مالك العشيرة العراقية المعروفة التي تنتشر في نواحي الحلة والشامية ويمود نسبهم إلى مالك الاشراف نظر: آقا يزرك، الكرام

واحد من أجلى مظاهر تدخل علماء النجف في الشؤون الداخلية لإيران. ويقال ان المرجعية بشكلها المطلق والمركزي برزت كظاهرة في زمان الشيخ محمد حسن الأصفهاني النجفي (م ١٢٦٦ هـ) المعروف بصاحب الجواهر، وفي هذه الفترة استحكمت العلاقة بين حوزة النجف وإيران، حيث عرف عنه تساهله في منح إجازات الاجتهاد للطلبة، مما أدى إلى ظهور الكثير من المجتهدين من طلابه وقد انتشروا في شتى المدن الإيرانية.<sup>(١)</sup>

وفي هذا السياق ينقل عن الشاه محمد القاجاري تعريضه بكاشف الغطاء بالقول ان الشيخ لديه ختم الاجتهاد يضربه على كل طالب يذهب إلى النجف فيعيده إلى إيران مجتهداً!

لكن صاحب الجواهر كان ينظر إلى الموضوع من زاوية أخرى، حيث يقول انه لا يمنح هؤلاء إجازة اجتهاد بل يفوضهم أمر القضاء، لأنه لا يشترط في القاضي أن يكون مجتهداً بل يكفي التقليد.<sup>(٢)</sup>

ويقال ان الحكومة الإيرانية قررت أن تختم على إجازات الاجتهاد المعتبرة لكي تضيق من دائرة العمل بهذه الإجازات وما زالت هناك بعض الإجازات المختومة من قبل الحكومة.

**الشيخ مرتضى الأنصاري :**

من مدينة ديزفول (م ١٢٨١ هـ) تقلد وسام المرجعية مباشرة بعد وفاة

(١) آل محبوبة، ماضي النجف وحاضرها : ١٢٩١٢ .

(٢) الوردى : ٨٥١٣ .

صاحب الجواهر عام ١٢٦٦هـ وعمره آنذاك (٥٢) عاماً فقط، واستمر مرجعاً للشيعة إلى وفاته ولمدة (١٦) عاماً. وبعد المرحلة التي كان لعلماء النجف فيها مشاركة في الحروب الإيرانية - الروسية، لم نعهد أى فعالية سياسية فى عهد صاحب الجواهر أو الشيخ الأنصارى، يمكن عدّها تدخلاً فى شؤون البلد المهمة سواء فى ايران أو المناطق الخاضعة للنفوذ العثماني.

فى مقابل ذلك، شهت هذه الفترة ظهور تيارات دينية مثل الشيخية والبايية فى الأماكن المقدسة تسبب فى حصول تطورات مهمة، ولا يستبعد وجود أيداء خفية حاولت التدخّل فى شؤون الحوزة وقتئذ.

### الميرزا الشيرازي (م ١٣١٢ هـ) :

وهو قائد ثورة التبناك ضد الانجليز والحكومة الإيرانية عام ١٨٩٢ م. وتزامن مع مرجعيته مراجع تقليد آخرون منهم السيد حسين الكوهكمري (م ١٢٩٩) والميرزا حبيب الله الرشتي (م ١٣١٢) ومحمد حسن الشريعتمداري الاسترآبادي (م ١٣١٨) ومحمد حسن الآشتياني (م ١٣١٩).

واعتباراً من سنة ١٨٧٤ م ١٢٩١١ هـ أصبحت مرجعية الميرزا الشيرازي مرجعية مطلقة.

إن أحداث ثورة التبناك أبرزت درجة النفوذ التي تتحلى بها المرجعية بسين أوساط المجتمع والتي هي حصيلة تراكمية لجهود العلماء على مدى قرون، ويعتبر هذا الحدث الكبير ثاني مظهر من مظاهر تدخّل الحوزة فى الشأن السياسى والاجتماعى بعد مشاركة جمع غفير من علماء الحوزات العلمية فى

النزاع الروسي - الإيراني. ومع إن المرجعية الشيعية تشكلت في عهد صاحب الجواهر والشيخ الانصاري، إلا أن المرجعية بشكلها الجديد وخاصة من ناحية تأثيرها، هي البذلة الرسمية التي فصلت على مقاسات الميرزا الشيرازي.

وحتى ذلك الوقت، لم يكن للمرجعية الشيعية مواقف مناوئة للسلطة الشيعية، حتى أنها كانت حذرة جداً في تعاطيها مع قضية التنيك كيلا يقود ذلك إلى الطعن بالسلطة الشيعية. وهذا التوجه والأسلوب في التعامل مع السلطة ترك أثره الواضح لمدة طويلة من الزمن، باستثناء فترة حكم محمد علي شاه حيث انتكست هذه العلاقة كثيراً.

إن آخر المراجع الإيرانيين ذوي المكانة والتأثير على الحوزات العلمية في العراق هما الأخوند الملا محمد كاظم الخراساني (م/١٢٢٩) والسيد محمد كاظم اليزدي (م/١٣٣٧). وقد تولى كل منهما زمام المرجعية لفترة من الزمن، ونظراً للخلاف الذي برز شعبياً حيال الحركة المشروطة في إيران، فقد انقسم الناس في تقليدهم على هذين المرجعين.

وقد كانت الأوساط الشعبية والتخبوية قد انقسمت إلى فريقين أساسيين عرف الأول منهما بأتباع (المشروطة)، وعرف الثاني بأتباع (المستبدة) وذلك تعبيراً عن الخلاف الدستوري الذي نشأ في مجلس الشعب الإيراني حول تحديد صلاحيات الحاكم أو تقييدها بسلطة نواب الشعب. وقد تعمق الخلاف وتحول إلى نزاع ضار بين الفريقين وصل إلى حد اتهام كل فريق للآخر بالكفر والخروج عن الملة.

ولعلّ أهم ما يميّز المرحوم اليزدي اهتمامه وحرصه على قصر تدخل الحوزة في الشأن السياسي على حدود الضرورة فقط. على أن هذا المنحى لم يكن هو الحاكم على الإطلاق، فالشواهد التاريخية تؤكد أن مرجعية النجف حافظت على الدوام على مستوى معين من التدخل في سياسة البلدين (العراق وإيران)، رغم أن التوجه العام والسائد هو الذي يتفادى الدخول في المعترك السياسي. ومعروف أن السيد اليزدي بذاته اندفع كثيراً في مواقفه النضالية المناوئة للانجليز في الأعوام ١٩١٦ - ١٩١٧ م.

لقد بلغ تدخل حوزة النجف في الشؤون الإيرانية أقصى مدى له إبان مرجعية الآخوند الخراساني والسيد اليزدي، ومردّ ذلك إلى خطورة الأحداث والتطورات التي شهدتها الساحة الإيرانية حينها. لقد كانت الحركة الدستورية المشروطة في إيران سبباً لتدخل علماء النجف في الشأن السياسي استناداً إلى المنحى الذي سلكته من قبل مدرسة سامراء، وبفعل إصرار رجال الدين المنتشرين في أوساط المجتمع الإيراني، وقد استمر الوضع على هذا المنوال خلال الإعدام ١٩٠٥-١٩١١ م.

ومع حلول عام ١٩٠٨ م، انطلقت حركة دستورية مماثلة في تركيا أدت إلى تحقيق بعض المكتسبات، مما شجع الشيعة العرب - الذين كانوا إلى ذلك الحين متحفزين إزاء ما يجري في إيران - على الانخراط في سلك المطالبين بإصلاحات دستورية، فالأمر الآن يرتبط بمصيرهم بشكل مباشر. وكان أول إجراء في هذا السياق افتتاح مدرسة للشيعة في مدينة الكاظمية حملت اسم

المدرسة الجعفرية - العثمانية والتي كانت بمثابة بوابة العرب الشيعة للدخول إلى عالم جديد.<sup>(١)</sup>

وفي هذه الأثناء ظهر النشاط الثقافي الشيعي بوجهيه الإيراني والعربي في الكاظمية والنجف، وأقيمت علاقات ثقافية رصينة وعلى مستوى ملحوظ بين مؤسسات النشر العربية كالمنار والمقتطف والهلال ونظيراتها الشيعية في العراق كمجلة العلم في النجف ومن بعدها مجلة العرفان في صيدا.

#### الميرزا محمد تقي الشيرازي (م ١٣٣٩ هـ) :

وهو المجتهد الذي أرخت له المرجعية المطلقة عثانها رغم وجود شخصيات علمانية بارزة من الشيعة في العراق وقتها. وقد تطرقنا آنفاً إلى دوره القيادي في ثورة العشرين العراقية.

#### الميرزا فتح الله شيخ الشريعة الأصفهاني (م ١٣٣٩ هـ)

بعيد وفاة الميرزا الشيرازي في خضم أحداث ثورة العشرين، آلت الزعامة الدينية إلى الميرزا شيخ الشريعة الأصفهاني - الذي لم يلبث أن وافاه الأمل أيضاً - وفي غضون ذلك تراجع الدور الذي تلعبه مرجعيات النجف في الشأن الإيراني وذلك بفعل انشغالها بتطورات الوضع في العراق، مضافاً إلى إخفاق قادة الحركة المشروطة في إيران في تحقيق ما يصبون إليه، وتفاقم هذا الوضع مع وصول رضا خان إلى سدة الحكم.

(١) آقا بوزر، الكرام البررة: ٧١٤٦٢.

## مراجع النجف والحكومة الايرنية

لقد طرأ تحول جذري على طبيعة التعاون والتنسيق بين السلطة في إيران وكبار المراجع الشيعة على مدى الفترة الممتدة من العصر الصفوي حتى العصر القاجاري. وقد طرأ هذا التحول تحديداً إبان حكم نادر شاه (م ١١٦٠ هـ)، حيث اتسمت العلاقة بين السلطة الايرانية والمرجعية الشيعية قبل مجيء نادر شاه، بمستوى عال من الودية والتفاهم والتطابق في وجهات النظر. ولكن العلاقة المذكورة تعرضت الى انتكاسة كبيرة إبان حكم نادر شاه وبعده، حتى بات المرجع يتحاشى التقرب من البلاط القاجاري لكي لا تفسد عليه شعبيته. والظاهر ايضاً أن القاجاريين كانوا غير متحمسين لوجود المرجعية العليا للشيعة في ايران، لما يشكّله ذلك من مزاحمة لصلاحياتهم.

يقال ان الملك القاجاري ناصر الدين شاه كان شديد الخشية من عواقب النفوذ المتزايد للشيخ عبد الحسين الطهراني ممّا جعله يفكر في إبعاده الى العتبات المقدسة في العراق، إلا أن المكانة الشعبية الواسعة للشيخ جعلت الملك يصرف النظر عن هذا الموضوع<sup>(١)</sup>

غير ان وجود مراجع التقليد الكبار في العتبات المقدسة في العراق لم نحلّ مشكلة القاجاريين، خاصة وأن وجود المراجع في العراق منحهم قدرة اكبر على التحرر من قيود الحكم القاجاري وأساليبه التعسفية.

ومع عناية علماء الشيعة بالدولة القاجارية كدولة شيعية وإدراكهم لطبيعة

الصراع التنافسي بين العثمانيين والقاجاريين الذين ورثوا الدولة من الصفويين، ولكن مراجع الدين الشيعة أبوا الخضوع لإملاءات السلطة القاجارية. على سبيل المثال قبل أحداث ثورة التنباك بأعوام، وحينما كان ناصر الدين الشاه قادماً من كربلاء الى النجف، خرج الكثير من العلماء لاستقباله، لكن الميرزا الشيرازي امتنع عن اللقاء بالملك حتى في مكان إقامته بالنجف، واكتفى بلقاء عابر معه في الحرم العلوي الشريف. وحين سأله أحد الوزراء في حاشية الملك عن السبب، أجابه الميرزا: (أنا رجل درويش، ما شأنى والملوك؟!)(١)

ان أحداث ثورة التنباك ساهمت في توتر العلاقة بين الحكومة الايرانية، والحوزة العلمية في النجف، وبلغ الأمر حدّ أن يفتى بعض المراجع بأن الدولة القاجارية دولة ظالمة ومستبدة، خاصة بعد تطورات الحركة الدستورية المشروطة. وفاقم من هذا الوضع كثرة النصوص الشرعية التي تنهى عن التقرب من الملوك. وقد تجذّر هذا الخلاف أيام المشروطة ثم تعمق في زمان رضا شاه حيث تأزم الوضع كثيراً بعد ذلك.

مع كل ذلك، بقي هناك نوع من التعاطف يبيده المراجع والعلماء حيال ايران كونها مركزاً للتشيع وحصناً منيعاً له، وفي مقابل ذلك كانت الحكومات الايرانية ترى في وجود العلماء في الحوزات العراقية طريقاً لتعزيز نفوذها في العراق، شرط أن تحصل على اعتراف المراجع بشرعية هذه الحكومات؛ الأمر الذي كان عزيز المنال.



وذات مرة، زعم القنصل الايراني في النجف صفاء السلطنة نقلاً عن الحاج الميرزا أبي القاسم العلامة الطباطبائي في لقاء جمع الاثنين ما مفاده ان الميرزا يرى التعاون مع موظفي الحكومة الايرانية واجباً شرعياً وهو في حكم العمل مع أمير المؤمنين عليه السلام، لأن ايران هي مركز التشيع وعاصمتها طهران.<sup>(١)</sup> غير ان هذا الشخص رفض نشر هذه المزاعم، وهو معروف بتملقه للسلطة، بل بعاملته للأجنبي، على أنه ينقل عنه في مناسبات اخرى قوله ان بعض المراجع يحرمون زيارة القنصل.<sup>(٢)</sup> وان كانوا يطلبون بعض المساعدة المالية من القنصلية على حدّ قوله.

### الشيعة ما بين العثمانيين والانجليز

في العقود الأخيرة من الحكم العثماني، ازدادت الضغوط على الشيعة في العراق، وكانوا يعدّون مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة. ومع أفول نجم الدولة العثمانية برز الانجليز كقوة عظمى في معادلة الصراع، وكان على الشيعة في العراق ان يختاروا أحد الأمرين : مناهضة العثمانيين ومسايرة الانجليز، أو إعلان الجهاد ضدّ الانجليز الذي هو بمثابة اتقياد لفتاوى الجهاد التي أطلقها شيوخ الاسلام العثمانيون لحشد الدعم لصالح الآستانة.

وفي هذا الصدد ينقل كامل الجادرجي ان الطائفة الشيعية كانت تعدّ أقلية أيام حكم السلطان عبد الحميد، وكان ينظر اليهم نظرة عدائية من قبل جهاز الحكم

(١) كوهستاني نجاد : ٧٩-٨٠ .

(٢) المصدر نفسه ..

العثماني، ولذلك لم يفسح المجال بوجههم لتحقيق تقدم في أي مجال من مجالات الحياة. وعلى سبيل المثال لم يكن يسمح لأي شيعي بالدخول في مدرسة عسكرية، وما عدا حالات نادرة جداً لم يكن يتاح لأي شخصية شيعية أن تحتل لها منصباً من مناصب الدولة، بل إن العراقيين توضع في طريق دخول أبنائهم المدارس الحكومية.<sup>(١)</sup>

وقد تكون وراء ذلك دوافع قومية يقصد الحؤول دون نفوذ الحكومة الإيرانية، وليس لأسباب طائفية فحسب.

ويعتق حسن العلوي عند نقله الكلام السابق للجادر جي بالقول إن اللافت للنظر أن القادة السنة في العراق الذين كانوا يدينون بالولاء للدولة العثمانية كانوا لا يجيدون العربية بطلاقة وذلك إن معظم دراستهم الابتدائية في المدارس التركية، لذا كانوا يستمعون بالوزراء الشيعة في حال احتاجوا إلى إصدار بيان باللغة العربية! ويضيف العلوي حقائق أخرى تدل على ظاهرة التمييز الطائفي منها أن الحكومة العثمانية كانت تقوم بإرسال شخصيات سنية كمتصرفين وحكام للولايات والمدن الشيعية مثل كربلاء والعمارة والديوانية والناصرية.<sup>(٢)</sup>

والمفارقة الأكبر - يضيف العلوي - أن العلماء السنة في العراق لم يتقيدوا بدعوات شيوخ الإسلام في إلامبول والتي تنص على وجوب محاربة الانجليز الكفار، بل إنهم جاروا الانجليز، في حين أن الشيعة الذين تعرضوا لاضطهاد

(١) انظر: من أوراق كامل الجادر جي، بيروت: ١٩٧٦، ص ٨٤.

(٢) العلوي: ٥٩.

وقمع مرير لفترات طويلة ولم تعترف الدولة العثمانية بهم رسمياً، رفعوا راية الجهاد بوجه الانجليز؛ وقد أورد العلوي قائمة بأسماء العلماء والشخصيات السنية التي توأطأت مع الانجليز،<sup>(١)</sup> هذا، وقد بارك أحد علماء الشيعة دخول القوات الانجليزية الى المدن المقدسة، ولكن السيد محمد كاظم اليزدي أفتى بفسق هؤلاء، وجاء في فتواه (الرجل الذي ارتكب هذا الفعل الشنيع فاسق فاجر لا يدفن في مقابر المسلمين).<sup>(٢)</sup>

كانت النجف والكاظمية مركز الحركة الجهادية ضد الانجليز، وقد سجل الشيعة الذين ذاقوا الويلات من الحكم العثماني، أكثر المواقف شجاعة في الدفاع عن الدولة العثمانية؛ الأمر الذي أثار دهشة الانجليز. ولكن هذه المواقف لم تجد من يقدرها ويتمنها بعد تشكيل الدولة العراقية الجديدة، ولم تظهر مبادرة لتخليد ذكرى ابطال هذه المواقف. والسبب في ذلك هو الدوافع القومية والطائفية التي كانت حريصة على إبقاء الشيعة على هامش الأحداث.

### تأييد علماء النجف لمشاريع الوحدة الاسلامية

لا ينبغي الشك أن أحد المعالم الرئيسية للحركة السياسية في النجف خلال العقود الأولى للقرن العشرين، هي تأييدها ومجاراتها للحركات الجهادية السنية في شتى أرجاء العالم الاسلامي، وفي هذا السياق توجد الكثير من البيانات والفتاوى التي أطلقها علماء شيعة دون أن يكون الهاجس الأساس فيها التشيع،

(١) العلوي : ٦١-٦٤.

(٢) الجيوري : السيد محمد كاظم اليزدي : ٦٢٥.

حيث يظهر من هذه البيانات ان انتصار الاسلام ونبذ الهيمنة الغربية هو الهم الأول والأخير لأصحاب هذه الفتاوى والبيانات، وهذا التوجه يعكس انفتاح الذهنية الثقافية الشيعية في تلك الاثناء، خاصة المدرسة النجفية.

وقد رحّب الشيخ رشيد رضا في مجلة المنار بالفتوى التي أصدرها آية الله الخراساني وآية الله المازندراني، وعدّها أساساً لمشروع وحدة المسلمين (المنار، ١٤ (١٩١١)، ص ٧٧ - ٧٨). وبعدها بفترة وجيزة هاجمت ايطاليا ليبيا، ما دعا علماء الشيعة مرة اخرى الى اصدار فتوى بوجوب الجهاد ضدّ المحتل الايطالي. وسواء نجحت هذه الفتاوى في التأثير خارج العراق أم لا، فإنها مكّنت علماء الشيعة من تحقيق خطوة متقدمة في إنشاء جبهة دفاعية.<sup>(١)</sup>

وبعيد احتلال البصرة من قبل الانجليز عام ١٩١٤ م ارتفعت دعوات الجهاد من جميع المساجد في العراق، وقد استثمرت السلطان العثمانية هذه الظاهرة ووظفتها لمصلحتها في الصراع. وكان في مقدمة علماء الشيعة الذين تجاوبوا مع هذا التوجه، الميرزا محمد تقى الشيرازي الحائري و شيخ الشريعة ومصطفى الكاشاني ومحمد سعيد الحبيوي ومهدى الحيدري ومحسن الحكيم.<sup>(٢)</sup>

إلا أن هذا التحرك لم يؤت ثماره، وتسلّطت بريطانيا من السيطرة على جميع التراب العراقي بحلول العام ١٩١٨ م.

لقد استمرت الدولة العثمانية بالتعاظمي مع الشيعة على أساس استغلالي بحت،

(١) القاش ١١٠

(٢) المصدر نفسه : ١١٢ .

وظلَّت الشريعة الشيعية في المجتمع مصنفة على الدرجة الثانية. واستمر الوضع على هذا المنوال الى ان استقر الانجليز بشكل كامل وأسسوا دولة ملكية في العراق ونصّبوا فيصل ابن الشريف حسين ملكاً، فيما يبدو أنه تنفيذ لمطلب تقدم به الشيعة.

### المرحلة الثانية : الملكية

انطلقت ثورة العشرين العراقية بقيادة آية الله الميرزا محمد تقى الشيرازي بوجه الانجليز الذي كانوا يرومون سلب العراق استقلاله وتحويله الى مقطعة انجليزية - هندية، ورغم انكسار هذه الثورة الشيعية - بقيادتها وقواعدها الجماهيرية - إلا ان الانجليز تراجعوا عن مخططاتهم الأولى واكتفوا بالمجيء بحكومة ذات زعامة عربية تكون موالية لهم.

ويعتقد العلوي أن هدف البريطانيين هو (تهنيد) منطقة الخليج عبر إرسال اعداد غفيرة من الهنود الى جنوب العراق وتوطينهم هناك. غير ان انتفاضة مجتهدى الشيعة ويقظة عشائر حوض الفرات الاوسط والجنوب بددت أحلام البريطانيين وحافظت على عروبة العراق، حتى كان العراق أول دولة عربية تنال استقلالها الرسمي، وكان هذا إحدى ثمار ثورة العشرين المجيدة التي بدا في الظاهر أنها لم تحقق أهدافها ولكنها حالت على أي حال دون الهدف البريطاني الكبير.

وحين ارتفع العلم العربي فوق سارية مبنى حكومي في كربلاء أنشد خليل

عزمي الأبياب الآتية :

بشراك يا كربلاء قومي انظري العلما على ربوعك خفاقاً ومبتسماً  
وكفكفى دمك الهطال وابتهجي فإن يند بنى قحطان قد حكماً<sup>(١)</sup>

لقد أفتى علماء الشيعة أيام ثورة العشرين بالجهاد ضد المحتل البريطاني ودعوا الى مواجهة مخططاته الرامية الى استعمار العراق وجعله محمية بريطانية على غرار ما حصل في الهند. وكان الهدف المعلن للعلماء بزعامة الميرزا الشيرازي هو تشكيل حكومة عربية يقودها ملك أو أمير من أحفاد الشريف حسين مع وجود مجلس شورى وطني.

وجاء في بعض المذكرات وصف (الحكومة الاسلامية) تعبيراً عن مرادهم هذا. وكانت الوحدة بين الشيعة والسنة أحد الشعارات الرئيسية لهذه النهضة، وهو مطلب تم التأكيد عليه من قبل الشيعة على وجه الخصوص، وقد انعكس ذلك بوضوح في الشعر السياسي الذي رافق تلك المرحلة، من ذلك

لا تقل جعفرية حنفية      لا تقل شافعية زيدية  
جمعتنا الشريعة الأحمدية      وهي تأبي الوصاية الغريبة<sup>(٢)</sup>

والقضية الجديرة بالملاحظة هي أن ثورة العشرين حافظت على هويتها العربية رغم أن زعماءها كانوا من ذوى الأصول الايرانية، والسرف في ذلك أن القادة الميدانيين للثورة هم من الشخصيات العربية من وجهاء المدن ورؤساء القبائل العربية، كما أن ادبيات الثورة سجلت جميعاً باللغة العربية مضافاً الى أن مضامينها

(١) العلوي : ١٣٧

(٢) النفاش : ١٢٤ .

كانت تتناول قضايا ذات نزعة قومية وتشبهت بالأماله العربية كمرجع معنوى  
للنهضة. وأورد حسن العلوى نماذج من شعر هذه الثورة تتجلى فيها هذه  
المعاني.<sup>(١)</sup>

ومن الطريف جداً البرقية التى بعث بها الميرزا محمد تقى الشيرازى المعروف  
بالميرزا الثانى الى الملك فيصل فى الأيام الأولى لتأسيس الدولة العربية فى  
العراق، حيث تحدثت هذه البرقية عن (الوحدة العربية) كمظهر من مظاهر المجد  
والعظمة الاسلامية، وحملها السيد محمد رضا الشيبى مندوباً عن الميرزا  
الى الملك.<sup>(٢)</sup>

وهناك عدد لا يحصى من البيانات الصادرة عن الميرزا محمد تقى الشيرازى  
وشيخ الشريعة الاصفهانى وعلماء آخرين تناول جميعها موضوع وحدة العراق  
واستقلاله عن هيمنة الأجنبي.

وبنهاية ثورة العشرين أقصى الشيعة عن الميدان السياسى لفترة طويلة من  
الزمن، وذلك بعدما أدرك البريطانيون والقوى السنية التى هيمنت على الحكم  
فى العراق ضرورة إضعاف العلماء الشيعة عبر قطع صلاتهم بإيران.<sup>(٣)</sup>

وتشكلت الدولة العراقية الحديثة ونصّب فيصل ملكاً للعراق ليقبى العراق  
تحت الانتداب البريطانى حتى عام ١٩٣٢ م. ووضعت بريطانيا والحكومة  
العراقية الموالية لها نصب عينها قضية إبعاد المجتهدين الى ايران، أو على الأقل

(١) العلوى : ١٣٠.

(٢) العلوى : ١١٤.

(٣) الثقاش : ١٢٧.

الحدّ من فاعليّتهم، ومن أساليب ذلك تحريض العشائر على الحوزة من خلال إثارة النعرة القوميّة بين أبناء تلك العشائر.

والحاصل أن انكسار شوكة المجتهدين الشيعة في هذه المعركة قد خلّف تأثيراً كبيراً على مواقفهم السياسيّة تجلّى واضحاً في المواقف التي اتخذوها حيال قضايا مشابهة نظير الهجوم الأمريكي على العراق عام ٢٠٠٣ م.

وعوداً على ذي بدء، فقد خطّطت الحكومة البريطانيّة لإجراء انتخابات في العراق عام ١٩٢٢ م، وذلك من أجل اضعاف الشرعيّة على التواجد البريطاني في هذا البلد. ولكن هذا المخطط جوبه بفتوى اصدرها كل من المراجع الثلاثة في العراق آنذاك : الأصفهاني والنائيني ومهدى الخالسي (م رمضان ١٣٤٣ ق في مشهد)، ودعمت الفتوى الى مقاطعة هذه الانتخابات واصفة اياها باللاشرعيّة ؛ الأمر الذي أدى إلى نفي هؤلاء المراجع الثلاثة الى إيران، وذلك سنة ١٩٢٣ م وقرار من الملك فيصل ورئيس الوزراء عبد المحسن السعدون اللذين كانا يعتبران مراجع الشيعة (أجانب) في حال ان الملك فيصل بذاته كان اجنبياً من أهل الحجاز !

بعد هذه المرحلة عمل الملك فيصل على فسخ المجال لعلماء الشيعة للدخول في الميدان الحكومي، ومثال ذلك تعيين السيد هبة الدين الشهرستاني وزيراً للمعارف في الحكومة العراقيّة، والذي استطاع بدوره تحقيق بعض الانجازات خال فترة توليه لهذه الحقبة الوزارية، ومن ثم كانت له خدمات



جليلة في الحقل القضائي بعد توليه ادارة المحاكم الجعفرية.<sup>(١)</sup>

كما تم اسناد منصب رئاسة الحكومة الى السيد محمد الصدر لعدة شهور في سنة ١٩٤٨ م، وقبله أسند المنصب ذاته لفترة وجيزة ايضاً الى شخصية شيعية هو صالح جبر. وقبيل انهيار الحكم الملكي في العراق تولى عبد الوهاب مرجان وهو شخصية شيعية ايضاً منصب رئيس الوزراء للأعوام ١٩٥٧-١٩٥٨.<sup>(٢)</sup>

جدير ذكره ؛ انه عقب وفاة الملك فيصل في حزيران ١٩٣٣ اثر نوبة قلبية، تولى العرش مكانه ابنه الملك غازي والذي قتل في حادث سيارة سنة ١٩٣٩ م بسبب الثمالة، واصبح ولده فيصل الثاني ملكاً على العراق من بعده لكنه كان صيباً وظل العرش تحت وصاية خالد عبد الاله حتى عام ١٩٥٣ م حيث تولى العرش بشكل رسمي لكنه لم يلبث طويلاً حتى قامت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بقيادة عبد الكريم قاسم ووقعت مجزرة البيت الملكي التي قتل فيها جميع افراد العائلة المالكة تقريباً.

ويعد هبة الدين الشهرستاني واحداً من اشهر الوزراء الشيعة اiban الحكم الملكي في العراق، وقد عرف عنه علاقاته الطيبة بايران، وعاش طويلاً بعد الوزارة وتردد كثيراً على ايران. وتم استيزاره في عهد الملك فيصل الثاني لفترة وجيزة، لكنه ترك تأثيراً كبيراً على القطاع التربوي وطور المدارس في الكاظمية، وأصبحت الأخيرة مركزاً علمياً وثقافياً مرموقاً بفضل انتشار مجلة العلم وبناء

(١) الكاظمي . محمد صالح ، ص ٤٥ .

(٢) بطاطو : ٢١٦١ .

المكتنيات العامة.

بيد أن المبدأ الذي ظلّ مهيمناً على معادلة الحكم في العراق أيام العهد الملكي وما بعدها هو (أن الضرائب على الشيعة والمناصب للسنة)، وهو أمر أدركه الملك فيصل - كما يقول بطاطو- وحاول معالجته.<sup>(١)</sup>

### المرجعية الشيعية

السيد ابو الحسن الاصفهاني (م ١٣٦٦/١٩٤٧) :

أصبح هو المرجع المطلق في حوزة النجف، وهناك مراجع آخرون في زمانه، ولكنهم من الدرجة الثانية أو قل الجيل الثاني من المراجع الذين لم يتسن لأى واحد منهم أن يمسك بمقاليد المرجعية على نحو مطلق وتزامنت مرجعية هؤلاء مع سلطنة رضا شاه بهلوى في ايران، وهم اربعة

- الشيخ عبد الكريم الحائرى اليزدى (م ١٣٥٥ - ١٩٣٦م).

- الشيخ محمد حسين كمباني الاصفهاني (م ١٣٦١ - ١٩٤٢).

- الميرزا محمد حسين النائيني (م ١٣٥٥ - ١٩٣٦).

- الآغا ضياء الدين العراقي (م ١٣٦١ - ١٩٤٢).

وكان السيد ابو الحسن الاصفهاني هو المرجع الأعلى في هذه المرحلة وان شاطره في المرجعية الميرزا النائيني في أيام حياة الأخير.

ورغم كون السيد ابو الحسن اصفهانياً إلا أنه أظهر مقدرة في السيطرة على

شؤون الحوزة في النجف الاشرف، وقد جمع بين اهتمامه بالسياسة ومناصرته للحركة الدستورية المشروطة وبين نزعتة الاصلاحية فيما يرتبط بالشؤون الدينية، ومعروف عنه تأييده لفتوى السيد محسن الأمين في تحريم ضرب السلاسل والتطبير من بين الشعائر الحسينية وأجاز الاصفهاني صرف سهم الإمام لدعم نشرة (الاسلام) التي كانت تصدر في شيراز.

يذكر ان الميرزا الثاني كان يرجع مقلديه في المسائل الاحتياطية الى السيد الاصفهاني مما أدى ازدهار مرجعية الأخير.

لقد كان النائيني والأصفهاني خليفتي الميرزا محمد تقى الشيرازي وشيخ الشريعة، وقد ورثوا عنهما نهضتين فاشلتين في العراق (١٩١٤-١٩٢٠) ولذا كانا يتحركان بحذر اكبر. وقد اصطدم هذان العلمان ومعهما آية الله الشيخ مهدي الخالصي بالحكومة ايام الملك فيصل وقاطع الثلاثة انتخابات سنة ١٩٢٣ م. وإثر ذلك تم نفي الشيخ الخالصي الى ايران، وبعده بمدة نفي النائيني والاصفهاني ولكن بلياقة اكثر دون أن يصحب ذلك رد فعل من قبل الجماهير العراقية آنذاك. وقد التقى العلماء الثلاثة - (رضا خان) ودار معه حديث حول إنهاء حكم سلالة القاجاريين. في غضون ذلك كانت العلاقة بين الحوزة والدولة في ايران تشهد توتراً كبيراً مرده الى ظهور الدولة الحديثة في العراق وتربع رضا خان على سدة الحكم في ايران. كل ذلك يأتي في سياق مساعي البريطانيين لإيجاد حكومات قوية في المنطقة لمواجهة المد الشيوعي. كانت النظرة السياسية التي تحملها الحكومات الايرانية حيال المراجع في النجف، نظرة ايجابية سائدة

وذلك الى ما قبل استحواذ (رضا خان) على السلطة في ايران ورفع لهواء العلمانية، والسبب في ذلك ان هؤلاء المراجع كانوا إيرانيين في الغالب، ويمثلون من الناحية السياسية أحد مرتكزات التأثير في الواقع السياسي العراقي. وكانت ايران اشترطت على الحكومة العراقية - لأجل رفع مستوى التمثيل الدبلوماسي - ان تلتزم الأخيرة باحترام مراجع التقليد الشيعية وأن يكون أي تغيير تقترحه الحكومة العراقية في وضع العتبات المقدسة منوطاً موافقة المراجع الشيعية بالاجماع.<sup>(١)</sup>

بيد أن هذا الموقف تبدل بعد عام ١٩٢٧ م. ان سياسة رضا خان في مرحلة ما قبل الملوكية قامت على التقرب من علماء الشيعة في محاولة للحد من نفوذهم وتأثيرهم على مجرى الأحداث السياسية في ايران، ومنها على وجه التحديد إنهاء هيمنة القاجاريين على الحكم.

وفي هذا المقطع الزمني يمكن تصور مرحلتين ؛ حرص رضا خان في الاولى فهما على توطيد صلته بعلماء الدين ومراجع التقليد، وقد استطاع توظيف هذه الصلات في تحقيق مآربه الذاتية في فترة تواجد كل من النائيني والاصفهانى في ايران، وكان يتمتع بشخصية انتهازية، وأضفى على نفسه مسوح الايمان والتدين بحيث كان مراجع النجف من أوائل المهنيين له بعد انقلابه على بني قاجار.<sup>(٢)</sup>

استمر هذا الموقف الطيب من قبل مراجع النجف تجاه (رضا خان) حتى بعد

(١) كوهستاني نجاد : ٢٣٣

(٢) منظور الاجداد : ١٠٠ .

اتخاذهُ لبعض الخطوات المثيرة للجدل والسخط الشعبي في الداخل الإيراني كإقرار قانون الخدمة الإلزامية، حيث امتنع علماء النجف عن اتخاذ موقف مناوئ للشاه بشكل صريح.<sup>(١)</sup>

وقد حملت البرقية التي بعث بها النائب إلى الشاه لهجة نصيح وعتاب حيال بعض الإجراءات التي اعتبرت منافية للدين وطلب منه أن يسخر سلطته (المباركة) لحفظ البلاد.<sup>(٢)</sup>

ويعود هذا التبدل في النهج إلى زمان فشل الحركة المشروطة في إيران ودخول رجال الدين في موقف حرج، ما أدى إلى بزوغ نجم المرجعية في العتبات المقدسة في العراق والتي هي امتداد لمرجعية الميرزا وآخرين في سامراء والنجف. وهنا برزت مشكلتان، أولاهما أن السيد أبا الحسن الأصفهاني لم يعد ميالاً للتدخل في الشأن السياسي الإيراني، والأخرى أن المسافة الشاسعة بين البلدين شكلت عائقاً دون وصول أخبار الجانب الإيراني بسرعة، وبالتالي تأتي ردود الأفعال متأخرة بعض الشيء.

ويقال إنه في حادثة هجرة علماء أصفهان بزعامة الحاج الآغا نور الله إلى قم احتجاجاً على بعض إجراءات الشاه، صرح آية الله الأصفهاني بأن السادة العلماء في قم يتدخلون في الشؤون السياسية للدولة، وهذا ما لا يليق بوظيفة رجل الدين.<sup>(٣)</sup>

(١) المصدر نفسه : ١٣٢

(٢) المصدر نفسه : ٦٢

(٣) منظور الاجداد : ١٢٤ .

بعد ذلك كثرت المضايقات الحكومية ضد الشعائر الدينية عام ١٩٢٧ م على خلفية الترويج لفكرة التجديد، وخاصة بعد حادثة المرحوم الباققى في قم وقيام رضا خان بضربه شخصياً، بدأت الأنباء تتوافد على النجف. وفي تقرير بعث به (محمود أرفع ويس) الفنصل الإيراني في النجف الى طهران تناول فيه مجريات لقاء دار بينه وبين السيّد الاصفهاني، ذكر أن الأخير أشار الى تقارير تصله من ايران حول مضايقات السلطة لرجال الدين ومحاربتها للمظاهر الدينية.<sup>(١)</sup>

مع ذلك كان ردّ فعل هجرة العلماء من اصفهان الى قم محدوداً في النجف، والظاهر أن رجال الدين المواليين للحكومة الايرانية كانوا يبذلون قصارى جهودهم لإحباط أى محاولة للتأثير على مراجع النجف وحثّهم على اتخاذ موقف إزاء الحكومة الايرانية.

وعام ١٩٢٨ م، اشتدت المضايقات الدينية وأقدمت السلطة على نفي بعض علماء تبريز، وعلى أثر ذلك تشكلت في النجف رابطة من الشخصيات الايرانية بزعامة آية الله النائيني طالبت باعادة علماء تبريز من قضاهم ورفع القيود التي وضعتها السلطات حيال الزىّ الديني. وقد وردت هذه الاحتجاجات في مذكرة أرسلتها الفنصلية الايرانية في النجف.<sup>(٢)</sup>

من ناحية أخرى، تسيبت السياسات النقدية التي اتبعتها حكومة رضا خان في هذه المرحلة بمزيد من المعاناة لعلماء النجف الذي كانوا يعتمدون على

(١) منظور الاجداد ١٢٣-١٢٥

(٢) كوهستاني نجاد: ١٧٧.

وصول مبالغ الحقوق الشرعية. وذات مرة أبلغ مبعوث رضا خان السيد أبا الحسن الاصفهاني بأن حكومة الشاه لا تمنع تحويل الأموال من إيران إلى النجف عبر وكلاء السيد هناك، لكن شريطة أن تتعرف على الأشخاص الذين يستفيدون من هذه المبالغ إلا أن السيد الاصفهاني رفض هذا الطلب بشدة.<sup>(١)</sup>

علاوة على ذلك فإن السياسة المشار إليها قلّصت من عدد الزوار وتحوّل الكثير منهم إلى الطرق غير القانونية في السفر إلى العراق؛ الأمر الذي انعكس سلباً على العلاقة بين البلدين. إن إبقاء الأبواب موصدة بوجه الزائرين الإيرانيين، كان يحصل أحياناً تحت غطاء الخشية من الإجراءات التعسفية لرجال الأمن العراقيين.<sup>(٢)</sup>

وهذا واقع لم يكن بعيداً عن الحقيقة جداً، فالمسؤولون الأمنيون العراقيون كثّفوا تدريجياً من إجراءاتهم بحق الإيرانيين وبخاصة رجال الدين منهم. هذا التطور الدراماتيكي في مجريات الأحداث ولّد لدى المراجع الإيرانيين في النجف شعوراً بأن الدولة الإيرانية هي الملاذ الوحيد الذي يمكن أن يلجأوا إليه في مثل هذه الظروف؛ الأمر الذي أدركه رجال السلطة الإيرانيون واستثمروه في الحدّ من الفعاليات المناهضة للسلطة لدى بعض رجال الدين الإيرانيين، وذلك عبر ترويض القناعة أعلاه، وتوظيفها ضدّ تحرك علماء اصفهان وهجرتهم إلى قم احتجاجاً على السلطة في طهران.<sup>(٣)</sup>

(١) منظور الاجداد : ١٠٤

(٢) منظور الاجداد : ١٣٦

(٣) منظور الاجداد : ١٣٨ .

وحتى ذلك الحين، كان التصور السائد بين صفوف رجال الدين الشيعة ان  
عظمة التشيع من عظمة ايران وعظمة إيران هي من عظمة السلطنة !

وفي هذا الصدد كتب آية الله الاصفهاني يقول

( ان عظمة مقام السلطنة العظمى هي أمل كل مؤمن متدين، وذلك ان  
استقلال الدولة الإسلامية وحفظ الاسلام وصيانة مصلحة المسلمين تنأتي  
من ذلك).<sup>(١)</sup>

لقد كان الشاه بصدده تدير مكيده حتى تسنى له عام ١٩٢٩ ان يبعث بخواتم  
من الماس لكل من الاصفهاني والنائبي والميرزا مهدي نجل الآخوند  
الخراساني.<sup>(٢)</sup>

في هذا العام كان آية الله الاصفاني والميرزا النائبي يشتكيان من عدم  
وصول الأموال من ايران وان الأموال التي تصل اليهم هي ققط من افغانستان  
وزنجبار، وبالتالي كانوا يستفيدون من الأموال لدعم الفقراء في ايران، اما الآن  
فإن ما في أيديهم من اموال لا يغطي النفقات اللازمة لادارة الحوزة في النجف.<sup>(٣)</sup>

ومع تمادى الحكومة الايرانية في توجهاتها العلمانية أخذت العلاقة بين  
النجف وإيران بالفتور يوماً بعد آخر. وهي حالة أضرت كثيراً بالطرفين، ففقدت  
الحكومة الايرانية سداً مهماً لها في مجال التواصل مع العراق، وفي مقابل ذلك  
سحبت حكومة رضا خان يدها من الوضع في العراق، وتخلت عن دعم علماء

(١) منظور الاجداد : ١٥٧

(٢) منظور الاجداد : ١٥٩

(٣) منظور الاجداد : ١٦٦ .



النجف امام الضغوط المتوقعة من الحكومة العراقية ضدّهم. في هذه الأثناء، تأججت المشاعر القومية بين العرب والعجم أو بين العراقيين واليرانيين. وفي سنة ١٩٢٧ م رفض القنصل اليراني تدخّل أحد رجال الدين بأن الذي حمله على ذلك هو حسّه بالوظيفية، أجابه القنصل :

(يكفيك النجف الأشرف كمسؤولية دينية واسلامية، أما يرن فيها الكثيرون ممن هم أجدر بهذه المسؤولية هناك).<sup>(١)</sup>

بعد رحيل الاصفهاني، تولّى آية الله القمي مقام المرجعية لفترة وجيزة لا تزيد على ثلاثة أشهر. كان القمي مستوطناً في العراق وسافر الى ايران عام ١٩٤٣ م وحاول ان يتدخل في بعض القضايا اليرانية بخصوص قضايا عدة كالحجاب والأوقاف، وتمكن من تحقيق نتائج في هذا السياق. ولم يكن السيد الاصفهاني ليوافق على هذا المنحى كما قيل.<sup>(٢)</sup>

في ظلّ مرجعية الاصفهاني، برز مرجع عربي من آل كاشف الغطاء وهو الشيخ محمد حسين (م ١٣٧٣ ق) وكان يحظى بشهرة علمية في النجف ويتمتع بعقلية متفتحة وذات نزعة تجديدية بالاضافة الى مواهبه الأدبية والشعرية. وكان لذلك انعكاساته الخاصة حتى على مستوى ايران حيث ترجمت بعض مؤلفاته الى الفارسية.

رغم ذلك، فقد خطف السيد ابو الحسن الاصفهاني قصب السبق والريادة

(١) منظور الاجداد : ١٢٨

(٢) منظور الاجداد : ٢٩٤ - ٢٩٦ .

بسبب مواجهاته المختلفة بحيث فرض نفسه على الواقع الحوزوي في منطقة عربية ومع وجود مرجع عربي.

وقد اهتم أحد المؤرخين بالمنحى الخاص لدى السيد الاصفهاني المتمثل ببذل عناية خاصة بقضايا الارشاد الديني في العراق، وعلى الخصوص في المنطقة الشمالية من هذا البلد حيث يتمركز أهل السنة. ويشير محمد صالح الكاظمي الى أنشطة الاصفهاني قائلاً ان المنطقة الشمالية كانت الى ذلك الحين تفتقر الى البعثات الدينية الإرشادية، لكن الاصفهاني أرسل اليها الكثير من الوعاظ والمرشدين لهداية الناس من الظلمات الى النور.<sup>(١)</sup>

### انتقال المرجعية الى ايران

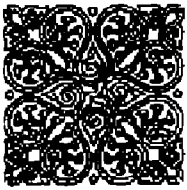
عقب وفاة آية الله السيد ابي الحسن الاصفهاني انحسرت المكانة المطلقة لمرجعية في العتبات المقدسة في العراق، وبدأت مرجعيات اخرى بالظهور في اماكن مثل قم المقدسة التي شهدت سطوع نجم المرجعية وآية الله السيد البروجردى (م - ١٣٨٠ق - ١٩٦١ م). ومعها شذت المرجعية رحالها الى ايران، بحيث انعكس مسار التأثير، فبات للسيد البروجردى تأثير على الوضع في النجف ولو على نحو محدود من قبيل تأسيس مدرسة او تقرير راتب شهري للطلبة. اما من الناحية السياسية فلم يكن هناك تأثير ملحوظ للمرجعية المستقرة في ايران على مسارات الأحداث في العراق. وبشكل عام يمكن القول أن

مرجعية النجف كان لها تأثير جاد في التحولات السياسية والاجتماعية في ايران، والعكس غير موجود على مستوى واضح حتى في المراحل التاريخية التي تحولت المرجعية الاصلية فيها الى الجانب الايراني.

كان للمرحوم البروجردى اعتناء خاص بحوزة النجف، وكان يخصص على طبق العادة مرتباً شهرياً لطلاب العلوم الدينية فيها كما قام بتشيد مدرسة. وجرياً على المعتاد في قم، اشترط البروجردى على طالب العلم أن يؤدي امتحاناً لكي يتمتع بالراتب، لكن هذا الأمر جوبه باعتراض أحد العلماء البارزين في النجف وهو آية الله الاصطهباناتي فألغيت الفكرة.

## الفصل الخامس

---



---

المرجعية في العراق وتحديات العصر



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

## عودة المرجعية الى العراق : آية الله الحكيم

في هذا المقطع الزمني، تعددت المرجعيات، فكان آية الله السيد محمود الشاهرودي (م ١٣٩٢هـ - ١٩٧٤م) وآية الله السيد أبو القاسم الخوئي في العراق، وآية الله روح الله الخميني (م ١٩٨٩م) وآية الله السيد محمد رضا الكلبايكاني وآية الله السيد محمد كاظم شريعتمداري في ايران. ولكن مرجعية آية الله الحكيم فرضت نفسها على الجميع، وذلك بسبب اقبال الناس عليها ولما تمثله النجف من عمق تاريخي على مستوى المرجعية. وهذه هي المرة الأولى في التاريخ المعاصر التي يتربع فيها مرجع عربي على مسند المرجعية العليا للشيعه. ولا تقتصر اهمية هذه المرحلة التاريخية على تولي آية الله الحكيم لمقام المرجعية فيها، بل ان ما يستحق الدراسة والتحليل هو عودة الطابع السياسي لحوزة النجف وتأثيرها في مجريات الوقائع والاحداث.

### أ - المشاركة الفاعلة للشيعه العرب في حوزة النجف

عموماً لا ينسجم مبدأ التحليل العنصري والقومي مع الأساس الديني والعلمي

لقضايا المرجعية. والذين يعيشون أجواء الحوزات العلمية من الداخل يدركون ان طبيعة المرجعية سواء كانت في قم او في النجف تسمو على الاعتبارات القومية والعنصرية. مع ذلك يحدث أحياناً أن تتدخل عوامل خارجية فيكون لها تأثير ولو محدود على قضايا المرجعية فتلقى عليها بظلال قومية ومناطقية. وفي غضون المائة عام الماضية ظلت المرجعية عصية عن التأثير بمثل هذه الاعتبارات، وإذا كانت المرجعية قد أرخت زمامها لآية الله الحكيم، فمن المؤكد أن أحد أهم الأسباب الداعية الى ذلك هو مكاتته العلمية المرموقة ومؤلفاته القيمة وبالذات كتابه الشهير (مستمسك العروة الوثقى) الذي أمر بقيمته العلمية الوسط العلمي الحوزوي عربياً كان أم أعجمياً. وهذا القضية تنطبق على آية الله السيد الخوئي الذي يقر الجميع بتفوقه العلمي.

ولكننا لا نغفل حقيقة ان النجف في تلك الأيام كانت تشكل خليطاً من الطلاب العرب والأعاجم، ولما كانت تلك المرحلة الزمنية شهدت الكثير من التوتر القومي والوطني، كان من الطبيعي ان يتأثر الوسط الحوزوي بهذه التخندقات، كاستجابة غريزية لتحولات البيئة السياسية والاجتماعية العامة. ومن هذه الزاوية سوف نواصل بحث وتحليل هذه المسألة.

فلا شك ان الوضع السائد في حوزة النجف هو هيمنة الطلاب الايرانيين، لا بمعنى ان العرب فيها غير حاضرين على المستويات العليا، كيف وقد أشرنا فيما سبق الى وجود الكثير من العلماء من ذوى الاصول العربية خلال القرن الثالث عشر الهجري. وقد تضاعفت أعداد هؤلاء في القرن الرابع عشر، حتى ان أبرز

تلاميذ الثائني كانوا من العرب، ناهيك عن آل كاشف الغطاء والكثير من الكتاب العرب العراقيين مثل أسد حيدر ومحمد رضا الشيببي والشيخ محمد السماوي وآخرين. ولعل أكبر شاهد على ذلك هو قدرة النجف على ابداع مدرسة أدبية خاصة في مجال الشعر أفرزت شعراء كباراً يأتي في مقدمتهم شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري. كما ان الثقافة العربية فرضت نفسها على أجواء النجف العلمية والأدبية في هذه المرحلة، كما يبدو ذلك جلياً في كتب السيرة التي صدرت في تلك الأيام نظير كتاب (هكذا عرفتهم) لجعفر الخليلي وكتاب (شعراء الغرى) للخاقاني.

ان عروبة الحوزة، أو بتعبير أدق الحضور العربي والعراقي في المعترك العلمي والأدبي فيها قد شق طريقه منذ أيام زعامة المرحوم الاصفهاني للحوزة النجفية. وأحد الأمثلة على دعمه لهكذا توجه، هو تأييده القوى لمشروع تأسيس (جمعية متتدى النشر) برئاسة الشيخ محمد رضا المظفر، وحرصه البالغ على استمرار المشروع.<sup>(١)</sup>

ولا شك بأن هذه الجمعية شكلت - بالقائمين عليها وبنوع اهتماماتها -<sup>(٢)</sup> أحد أبرز المراكز العلمية والثقافية التي أسهمت في إضفاء طابع عربي على الحوزة في النجف، علماً أن رئيسها المظفر كان أحد أعضاء المجمع العلمي العراقي في بغداد.

(١) الخليلي : ٢٣٩٢

(٢) الخليلي : ٢٥١٢ .



إلى ذلك، فإن ترشح آية الله الحكيم كمرجع عربي، ومساعدته لاجتذاب الطلاب العرب إلى الحوزة غير معادلة التوازن في النجف لصالح العرب وحدّ من الهيمنة الإيرانية عليها، مما أسهم في تشكيل انطباع جديد عن المرجعية وهويتها. إن وفاة آية الله النائيني وهو مرجع إيراني وحرص بعض وجهاء النجف على ترشيح آية الله الحكيم دليل واضح على وجود توجه لتعريب المرجعية في النجف. عدا ذلك، فإن الحوزة لم تكن تخلو قبل ذلك من العلماء أو المراجع العرب، لكن وجود الإيرانيين يغطي عليهم.

أما البعد الآخر لعروبة المرجعية، فهو أنشطة آية الله الحكيم في المجال السياسي وتواصله مع العشائر العراقية. إن الاستعانة بالعشائر في التأثير على الواقع السياسي في العراق، كان له دور رئيس في ظهور الجانب العربي من التشيع في العراق، وذلك بعد عقود من انطلاق ثورة العشرين.

مع ذلك، لا ينبغي تجاهل حقيقة أن آية الله الحكيم كان مدعوماً من لفيق من الطلبة الإيرانيين، وبالمقابل كانت بعض الأسر العربية من البيوتات العلمية في النجف الأشرف لا تنسجم معه في المواقف والرؤى، فيما سعت بعض البيوت العلمية في النجف إلى اجتذاب الطلبة العرب، في إجراء يمكن عدّه تضييقاً لآية الله الحكيم الذي أبقى على الإيرانيين في إدارة الحوزة. ولكن بنظرة إجمالية كانت الحوزة في النجف تتحرك باتجاه الاكتفاء بوشاح عربي.

ثمة تفسير آخر للطابع العروبي الذي طغى نسبياً على هوية النجف آنذاك، وذلك أن أعداداً قليلة من العرب المشتغلين بالزراعة وتربية المواشي كانوا

يقصدون النجف بغية تحصيل العلم وذلك بسبب عدم وجود راتب شهري للطلبة يعينهم على تدبير المعاش، ولكن تثبيت الراتب إبان مرجعية آية الله البروجردى أدى الى تحسين الوضع المعيشي للطلاب ومن ثم تزايد إقبال الطلاب العرب على الدراسة الحوزوية في النجف، والواقع، ان تغير هوية النجف من أعجمية الى عربية، لم يحصل بين عشية وضحاها، بل هي عملية تدريجية بطيئة للغاية، ذلك ان معظم الدروس الحوزوية كانت تتداول في حلقات تحكمها اللغة الفارسية، حتى ان الكثير من الطلبة العرب كانوا مضطرين الى تعلم الفارسية لكي يتاح لهم الاشتراك في تلك الحلقات. ومن هنا فإن النفس الايراني ظل قائماً بقوة حتى في زمن مرجعية آية الله الحكيم الذي كان شخصية عربية، ولكن معظم موظفي مكتبه كانوا يحملون ألقاباً ايرانية. كما ان العديد من وكلائه كانوا من الايرانيين، حتى قيل أن زهاء ألف شخص ايراني حصلوا على إجازات ووكالات شرعية من السيد الحكيم.

ويبقى هذا السؤال ماثلاً نصب أعين الباحثين : لماذا أصبحت حوزة النجف ذات طابع ايراني الى هذا الحد؟ والجواب يرتكز على عدة نقاط الأولى انه على مدى فترة طويلة من الزمن هيمن الايرانيون على المرجعية في النجف منذ زمان الشيخ الأنصاري مما فتح الأبواب كلها بوجه الايرانيين لتعزيز مكانتهم فيها.

الثانية ان الايرانيين كانوا لا يأتون الى النجف إلا لأغراض الدراسة والتحصيل، وهم بالتالي أكثر من العرب الذين يقصدون أو يتواجدون في النجف



جنبيه أيضاً طلاباً من شيعة السعودية ولبنان. ولقد أمر آية الله الحكيم بفتح الدورات العلمية عام ١٩٦٧ م، وكان جميع طلاب الدورة الأولى لذلك العام من العراقيين. أطلق على هذه الدورات اسم (دورة العلوم الدينية للإمام الحكيم) ومقرها في مسجد الهندي.<sup>(١)</sup>

### ب - السياسة الطائفية في العراق المعاصر

لدى الحديث عن الطائفية في العراق يقفز الى الأذهان مباشرة موضع الخلاف بين السنة والشيعة في وسط العراق وجنوبه، بينما يأخذ هذا الحديث بعداً آخر في مناطق شمال العراق حيث الحديث عن الاكراد والمسيحيين وباقي الطوائف. يعود النزاع بين السنة والشيعة في العراق الى أيام الدولة العثمانية، حيث عملت الأخيرة على كبح جماح التشيع في العراق. ولكن هذه السياسة استمرت بل تفاقمت أيام العهد الملكي في العراق.

معروف ان عبد الكريم قاسم تزعم سنة ١٩٥٨ م ثورة ضد الحكم الملكي بمعوية مجموعة من زملائه الضباط، وعد فترة نشب خلاف بينه وبين رفيقه في الثورة عبد السلام عارف حول موضوع الوحدة مع مصر، فقام الأول بعزل الثاني وتجميد دوره، وخلال الأعوام اللاحقة قويت شوكة الشيوعيين لكنهم مع ذلك لم يتمكنوا من السيطرة على الميدان السياسي.

في غضون ذلك اشتبك عبد الكريم قاسم مع الأكراد وتحولت الحركة الكردية بزعامة الملا مصطفى البارزاني الى عنصر أساس في المعادلة السياسية

العراقية. وقد تحالف البعثيون وبعض القوى الاخرى ضد عبد الكريم قاسم، وبدأ هؤلاء بالتقرب من عارف.

قلنا ان الشيوعيين اكتسبوا خلال هذه الفترة قدرة كبيرة، لكنه عجزوا عن التحكم بأحداث الساحة العراقية نتيجة تمسك القوى السننية العربية بمقاليد الأمور الاساسية من مناصب عليا في الجيش والدولة والمجتمع. وكان الأمين العام للحزب الشيوعي العراقي حينها شخص يدعى عادل سلام وهو من أهالي النجف، وينتمي الى اسرة من السادة واسمه الحقيقي سيد حسين الرضوي. وهذا الأمر أدى الى نوع من التقارب بين الشيعة والشيوعيين حتى ان بعض الشيعة اعدموا أو قتلوا بتهمة الشيوعية !

من ناحية أخرى، فإن كون والده عبد الكريم قاسم سيده شيعية، أوجد نوعاً من التعاطف بين قاسم والشيعة كان من مظاهره فسح المجال - ولو جزئياً - بوجه الشيعة لدخول المؤسسة العسكرية العراقية التي كانت حتى ذلك الحين حكراً على السنة فقط.

لكن عبد السلام عارف ركب الموجة التي أوجدها البعثيون ضد قاسم وتمكنوا من الانقلاب عليه وقتله. ومع نشوب خلافات بين البعثيين انفسهم استطاع عارف توظيف هذه الأمور لكي تستتب له السلطة في العراق. لكنه مع اختلافه مع البعثيين اصطدم بحوزة النجف وأثار مشاكل مع الأكراد بالإضافة الى علاقاته المتوترة مع كل من مصر وسوريا. ولم يقف عند هذا الحد، بل عمل على تأزيم علاقته بايران أيضاً، وكانت المرة الأولى التي تطلق فيها الحكومة العراقية

اسم الخليج العربي على الخليج الفارسي.<sup>(١)</sup>

وقبل ذلك كان قاسم أثار أزمة مع الكويت بدعوى ان الكويت جزء لا يتجزأ من العراق، مما ساهم في تآزيم علاقات العراق مع محيطه الاقليمي. ومهما يكن من أمر، فإن انقلاب عام ١٩٥٨ م كان في طريقه لإيجاد ثورة في كل مرافق الحياة السياسية والاجتماعية في العراق. من ذلك ان شرائح عديدة من الطبقات الاجتماعية المسحوقة برزت لها أصوات تطالب بحقوقها، مما مهد لظهور بعض النزاعات القومية والقبلية والطائفية.

ويمكن القول انه في الفترة التي أعقبت الاطاحة بحكم عبد الكريم قاسم، كان البعثيون ومن سايرهم من القومييين هم القوى المؤثرة في الساحة بشكل مباشر أو غير مباشر، لأن ما سواهم من قوى - كالتشيوعيين مثلاً - لم يمتلكوا القدرة الكافية للتأثير على مجريات الأحداث. والواقع ان حزب البعث أخذت قوته بالتنامي بهدوء، وكأن القدر كتب له أن يكون صانع الأحداث للعقود الآتية. ويعتبر حزب البعث العراقي فرعاً من حزب البعث السوري، دخل العراق للمرة الاولى سنة ١٩٤٩ م وذلك عن طريق الطلبة السوريين البعثيين الذين كانوا يدرسون في الجامعات العراقية.

ولم يلبث هذا التشكيل الجديد أن يعلن عن وجوده القوى بعد مرور ثلاث سنوات فقط، وبدأت خلاياه تنشط في الجامعات وداخل المؤسسة العسكرية. وكانت قيادته آنذاك بيد فؤاد الركابي (شيعي) حتى عام ١٩٥٩ م حيث دبّر

الحزب محاولة اغتيال لعبد الكريم قاسم لم تحقق مبنغها ما أدى الى هرب العديد من أعضاء الحزب أو زجهم في السجن. وحتى ذلك الوقت كان نسيج الحزب متألفاً من مزيج من الشيعة والسنة، وكان التوجه العام للحزب هو التوجه القومي العربي المطعم بمبول اشتراكية.

عام ١٩٦٣ دبر البعثيون محاولة انقلابية أخرى ضد الحكم القاسمي، ولكن الحظ ابتسم لهم هذه المرة فأسقطوا حكومة قاسم وقتلوا الرجل، وهيمنوا على مقاليد السلطة ولو بشكل مؤقت حيث عاد عبد السلام عارف ليتزع منهم السلطة وبقي فيها حتى قتل عام ١٩٦٦ في حادث مروحية، وخلفه أخوه عبد الرحمن عارف الذي حكم العراق سنتين انتهت بانقلاب البعثيين مرة أخرى وحصولهم على السلطة في ١٧ تموز ١٩٦٨ م.

يقولون ان عبد السلام عارف هو أول من أثار الموضوع الطائفي بشكل شبه علني، اذ ينقل عنه قوله ان نجاح الثورة باستئصال ثلاث فرق الشيعة والكرد والمسيحيين ! وكان يرى ان الدولة الجديدة في العراق يجب ان تكون بيد السنة العرب.<sup>(١)</sup>

في تلك الأيام، كتب آية الله الخميني رسالة من التجف إلى آية الله الميلاني في إيران يصف فيها الأوضاع في العراق ويقول: مما يوجب القلق هذه الأيام ما صدر عن عارف من رغبته بإعادة أمجاد الأمويين الأمر الذي أثار لغظاً بين السنة والشيعة في العراق، فيما يبدو أن هناك

(١) فرهاد ابراهيم، الطائفة والسياسة في العالم العربي، ٢٩٢.

مخططاً لزرع بذور الفتنة والخلاف.<sup>(١)</sup>

ومنذ ذلك الحين، أخذت تتردد على أسماع الناس مصطلحات مثل (الشعوبية) و(الفارسية) مقرونة بالشيعة والتشيع، وبالتزامن مع مساعي عبد السلام عارف في إثارة الفتنة الطائفية في العراق، والتي واجهت مقاومة من لدن علماء الشيعة وفي مقدمتهم آية الله الحكيم الذي اتخذ إجراءات سياسية مهمة لمجابهة هذا التوجه العارفي الخطير.<sup>(٢)</sup>

عام ١٩٦٤ م وانطلاقاً من رؤيته الطائفية والعنصرية، شن عبد السلام عارف أولى حملاته على الأكراد، وقام بتنظيم مؤتمر لعلماء السنة في بغداد حضره شيخ الأزهر لكي ينتزع منهم فتوى بقتال الأكراد. وبحسب بعض الوثائق الخاصة بالسافاك الإيراني فإن بعض المسؤولين العراقيين أجروا اتصالات بآية الله الشاهرودي وسائر العلماء كالسيد محمد باقر الصدر والسيد الخميني يطالبونهم فيها بإصدار فتاوى تجيز قتال الأكراد بدعوى أنهم غير مسلمين! وقد امتنع العلماء عن إصدار فتوى بهذا المضمون وكان السيد الشاهرودي في مقدمة الممتنعين.<sup>(٣)</sup>

هذا، وقد وجهت دعوة للسيد محسن الحكيم للمشاركة في المؤتمر المنعقد لهذا الغرض، إلا ان آية الله الحكيم لم يكتف برفض الدعوة بل اصدر فتوى بتحريم قتال الأكراد لأنهم إخوة لنا في الدين والوطن.<sup>(٤)</sup>

(١) العلم والجهاد . ١٧٥١٢

(٢) بياني . ٥٦٥١١

(٣) آية الله العظمى الكلبايكاني نقلاً عن وثائق السافاك . ٢٦٣١٣ .

(٤) بياني : ٥٨١١١ .



وقد أثرت هذه الفتوى في الكثير من شباب الشيعة الذين فروا من الجيش مع بدء الهجوم على الأكراد.<sup>(١)</sup>

ومن ثم أصبح لهذه الفتوى أثر تاريخي في التقارب بين الشيعة والأكراد، وهما المكوّنان للذنان يرزحان تحت الهيمنة السنية.

والمقتل عبد السلام عارف في حادثة جوية، استلم السلطة بدلاً عنه أخوه عبد الرحمن، وكان دمث الطباع فحاول تطبيع العلاقات مع آية الله الحكيم وحوزة النجف، حتى أن السيد الحكيم بعث ذات يوم برسالة إلى عبد الرحمن عارف استخدم فيها تعبير (ولدنا) في مخاطبته، وقد بثت من الإذاعة عدة مرات، وكان السيد الحكيم كتبها في أعقاب نكسة حزيران وهزيمة العرب أمام إسرائيل عام ١٩٦٧ م، وكان الرابط بين آية الله الحكيم والحكومة نجلة السيد مهدي الحكيم.

لابد من الاعتراف بأن آية الله الحكيم أدخل المرجعية مرة أخرى في الشأن السياسي بعد أن كانت منزوية عن الأوضاع السياسية والاجتماعية إلى حد بعيد، ولم يكن هناك أي اهتمام بالقاعدة الشعبية الشيعية ولا بإمكانية توظيف طاقاتها من خلال العلاقة بين المراجع والمقلّدين في خدمة أهداف سياسية.

لقد اهتم آية الله الحكيم بالشأن السياسي إلى درجة كبيرة وذلك بسبب الأوضاع غير المستقرة في العراق بالإضافة إلى ما يتحلّى به السيد من خصائل ورؤى وآمال، ولكن السيد عاد وابتعد عن التدخل في الشأن السياسي وبالذات

بعد وصول البعثيين إلى السلطة، ومن بعد ذلك مرض السيد الحكيم، وراحت السلطة تطارد الأشخاص الذين يؤيدونه وفي مقدمتهم ولده السيد مهدي الحكيم الذي اضطر هو وآخرون إلى الهرب خارج العراق.

في هذه الحقبة، تفاقم الحس الطائفي، وبدأ أن حزب البعث لا يستسيغ العلاقة الطيبة التي عملت من أجلها حكومة عبد الرحمن عارف مع حوزة النجف، فتحولت مؤسسات الدولة تدريجياً إلى دوائر مغلقة على طائفة معينة هي الطائفة السنية. ولم يبق في قيادة الحزب والدولة إلا أشخاص قلائل من الشيعة؛ الأمر الذي زاد من حالة التخندق الطائفي في العراق.

لقد وضع حزب البعث نصب عينيه مهمة مواجهة ما يعتبره خطرين أساسيين الأول الأكراد والثاني الشيعة بمركزية النجف. ولقد واصل البعثيون سياستهم العدائية ضد الأكراد والشيعة على السواء. ورأى البعثيون أن إزاحة عقبة النجف من طريقهم يتم عبر النيل من آية الله الحكيم كونه يمثل المرجعية العليا للشيعة، والخطوة المهمة في هذا السياق هي تفسير الإيرانيين الذين يشكلون العمود الفقري للحوزة.

على الصعيد الأول عمد البعثيون إلى إسقاط شخصية آية الله الحكيم في نفوس الناس، وفي الوقت الذي كان موجوداً في بغداد للاحتجاج على الحكومة، دبرت السلطة لقاءً تلفزيونياً اتهمت فيه السيد مهدي الحكيم بالتجسس، وأشاعت جواً من الخوف والرعب، انعكس مباشرة على موقف الناس من آية الله الحكيم، حيث تخلّوا عنه وتركوه وحيداً في مواجهة السلطة فاضطر إلى العودة إلى

التجف. (١)

مضافاً إلى التكلفة النفسية التي خلفها خروج جمع من الجهلة والانتهازيين وعملاء السلطة في تظاهرات تسيء إلى المرجعية، كما قام بعض الأوباش بالتمدى على تظاهرة قام بها بعض الأفغان والإيرانيين دفاعاً عن آية الله الحكيم. لم تمض فترة طويلة حتى توفي آية الله الحكيم في ٢٦ ربيع الأول ١٣٩٠ هـ المصادف ١٦١١/١٩٧٠ م، فخرج في تشييع جنازته حوالى مليون نسمة كان من بينهم أحمد حسن البكر الذي باغته الجماهير بهتافات المستنكرة لاتهام السيد مهدي الحكيم بالتجسس. (٢)

هذه المواقف شكلت قاعدة لإجراءات السلطة البعثية في مواجهة الشيعة التي بلغت في بعض مراحلها إلى اتهام البعثيين للشيعة ككل بأنهم إيرانيون. واتخذت المواجهة شكل (العربي السني في مواجهة الفارسي الشيعي)، وقد نشرت مئات الكتب التي تحرض ضد الشيعة وتتهمهم تارة بالفارسية وأخرى بالشعبوية من قبيل كتاب (وجاء دور المجوس). هذه الأساليب الدعائية المحرطة ضد الشيعة استمرت إلى ما بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران لتصبح رأسمال الوهاية في التأييد على إيران والتشيع، عبر نعت الإيرانيين بالمجوس، وهو النعت الذي تبدل الآن إلى الصفويين.

لقد ابتدأ حزب البعث منذ وصوله السلطة في ١٧ تموز ١٩٦٨م بمضايقة

(١) انظر القصة كاملة في : سامي . عشرون سنة من تاريخ العوزة ، ٢٨١ .

(٢) شير ، حسن : ٢١١٣ .

الشيعة وتقليم أظافرهم وتقليص نفوذهم في الدولة، ومن ثم أعلن المواجهة مع الشيعة فاستعمل ضدهم سياسات وحشية تمثلت في قمع الشيعة واغتيال رموزهم الدينية وذلك على مدى ثلاثة عقود أسفرت بمجموعها وبتداعياتها عن هذا الوضع المأزوم الذي يعيشه العراق والمنطقة الآن.

كتب السد مرتضى العسكري وهو من قيادات حزب الدعوة واصفاً سياسة البعث ضد الحوزة، يقول سوف يستمر الوضع في النجف على هذا المنوال حتى تستبيح الحكومة العراقية الحوزة العلمية في النجف وتقضى على مظاهر زيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية. والى جوار ذلك سيواصل البعثيون قمع الأكراد ومحاربتهم، لأن الأكراد إذا قويت شوكتهم في العراق فسوف يبادر الشيعة إلى تأييدهم وبالتالي قد تخرج الأمور عن سيطرة السنة، هذا ما تخشاه الحكومة في العراق، لذا فهي تعمل بشكل متزامن على قمع الأكراد وتضعيف مكانة الشيعة... ثم يشير العسكري الذي هاجر إلى إيران سنة ١٩٧٢ م إلى محاولة صدام استحصال فتوى من علماء الشيعة لتبرير قتال الأكراد وان محاولاته هذه باءت جميعاً بالفشل.<sup>(١)</sup>

وازدادت الأوضاع وخامة بعد الثورة الإسلامية في إيران، وانتاب السلطة في بغداد هلع شديد من إمكانية تأثير الثورة على الأوضاع الداخلية في العراق، فبادرت إلى شن الحرب على إيران من أجل خلط الأوراق واستمرت الحرب ثماني سنوات (١٩٨٠-١٩٨٨ م)، أعقب ذلك احتلال الكويت ومن ثم

(١) آية الله العظمى الكلبايكاني في وثائق السابق، ٢٦٨١٣-٢٦٩.

الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١ م كنتائج ترتبت على حماقات السلطة في العراق و رغبة البعثيين في الذهاب بعيداً في أطماعهم التوسعية.

### ج : آية الله الحكيم والحكومة الإيرانية

مع بدء إعلان مرجعية آية الله الحكيم، أبرق محمد رضا بهلوي إلى السيد الحكيم معزياً إياه برحيل المرجع آية الله البروجردى، وذلك في إحصاء إلى ان الحكومة الإيرانية ترى في السيد الحكيم مرجعاً أعلى للعالم الإسلامى. إثر ذلك، ورغم مجازاة السيد الحكيم لبعض المواقف النهضوية لرجال الدين في إيران ضد سياسات الشاه<sup>(١)</sup>، إلا أن الحكيم ظل يتحرك باحتياط وحذر متحاشياً الاصطدام بالحكومة الإيرانية، وذلك لأمرين : الأول : أنه يدخل في مواجهة شرسة مع الحكومات القومية في العراق ممثلة بالبعثيين.

والثانى تأثره بالرؤية التقليدية السائدة في النجف والتي تنظر إلى سلطة الشاه في إيران على أنها السند والدعامة الوحيدة للتشيع في العالم.<sup>(٢)</sup>

ولهذا، عندما نفى آية الله الخمينى إلى النجف والتقى آية الله الحكيم طلب منه الذهاب إلى إيران لكي يطلع على الأوضاع فيها عن كثب.<sup>(٣)</sup> ولقد أثار تردد بعض شخصيات البلاط الشاهنشاهى على بيت السيد الحكيم حفيظة علماء الدين الثوريين واستياءهم.

(١) انظر جوابه للرسالة التي نطلبه بدعم وتأييد حوزة النجف لأحداث قم . الكبايكاني ١٠ / ٢٤ - ٢٥ .

(٢) خاتم يزدي ، ٨١ .

(٣) خاتم يزدي ، ٩٤-٩٥ .

يقول المرحوم خاتم الزدي ان موقف السيد الحكيم من الشيوعية أثار عليه سخط الشيوعيين<sup>(١)</sup> الذين كان لهم نفوذ قوى في الأوساط الشعبية آنذاك حيث سادت الأجواء الثورية في العالم العربي واستقطبت نحوها الشباب العربي وبضمنهم الشيعة، وهذا خطر آخر يخشاه الحكيم.<sup>(٢)</sup>

كان التصور الذي يشغل ذهن آية الله الحكيم هو أن سقوط الشاه يعني سقوط إيران بأيدي الشيوعيين.<sup>(٣)</sup>

ذات مرة ذهب أحد المقربين من آية الله الخميني واسمه نصر الله الخليفاً إلى آية الله الحكيم وطالبه بأن يبدي اهتماماً بمجريات الأحداث في إيران، فكان جواب السيد الحكيم أنا عراقي، ولا شأن لي بما يجري في إيران!<sup>(٤)</sup> بالمقابل لم يُبد رجال الدين الثوريين تعاطفاً مع آية الله الحكيم حيال الضغوطات التي تعرض لها. إلا ان مكوث آية الله الخميني في النجف أدى إلى ولادة توجه جديد في هذه المدينة يعارض الحكومة الإيرانية بقوة، ولكن آية الله الحكيم ظل متحفظاً على هذه التوجهات.<sup>(٥)</sup>

وهنا لا بد من الإشارة إلى مفاد حديث دار بين آية الله الخميني وآية الله

(١) أصدر آية الله الحكيم فتواه الشهيرة بحق الشيوعية ونصها (لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي فإن ذلك كفر والعاد أو ترويج للكفر والإلحاد، أعاذكم الله وجميع المسلمين عن ذلك) انظر شهر، حسن

(٢) يقول آية الله الملكوتي في مذكراته (ص ٥١) بلغ النفوذ الشيوعي في النجف حدّاً راح البعض يطلق عليها اسم موسكو!

(٣) خاتم يزدي ٩٢

(٤) خاتم يزدي : ٩٥

(٥) خاتم يزدي : ٨٢.

الحكيم بهذا الصدد.

حيث حاول السيد الخميني بإصرار جرّ السيد الحكيم إلى الدخول في مواجهة مع الشاه، إلا أن هذه المحاولة جوبهت برفض من قبل السيد الحكيم.<sup>(١)</sup> وقد جرى هذا الحديث حينما قام آية الله الخميني بزيارة لآية الله الحكيم مساء يوم الاثنين ٢٢ جمادى الثاني ١٣٨٥ هـ وبحضور حجة الإسلام سامي الذي يروي مجريات اللقاء كما يلي :... لم نليت في فناء دار آية الله الحكيم طويلاً حتى ظهر لنا السيّد وتبادل مع السيد الخميني التحية، وبعد برهة قال السيد الخميني سمعت أنك مريض، وأرى من المناسب أن تقصد إيران لغرض العلاج، ولكي تتمكن أيضاً من مراقبة الأوضاع في إيران عن كثب.

فأجابه السيد الحكيم : أنا مطلع على كل شيء.

فبادر السيد الخميني إلى القول لا أظن ذلك، إذ لو كنت كذلك لما قصرت في التعاطي مع الوقائع الأخيرة في إيران.

السيد الحكيم قمت بما هو وظيفتي الشرعية، على أنك لست خبيراً بالأوضاع السياسية للعالم، ثمة أناس انتهازيون يثيرون هذه المشاكل من أجل مصالح خاصة، وينبغي أن نكون حذرين ومتيقظين جداً.

السيد الخميني : لعلك لا تدري بأن أمريكا وبريطانيا تسعيان إلى القضاء على الدول الإسلامية، وقد خططوا للشروع بإيران. فهم ينهبون جميع خيراتها ويمتصون دماء هذه الأمة، نعم، ينبغي علينا الحذر واليقظة، وقد انتفضنا من أجل

ذلك، واعلم بأن محمد رضا بهلوي لا يؤمن بالإسلام أصلاً.

السيد الحكيم : نعم، ما تفضل به صحيح، ولكن طريق مقاومة ذلك ليس ما هو تقوم به، لأننا لا نملك القوة والسلاح الكافيين، وليس لدينا إلا هؤلاء الناس، وقلوبهم مع الريح، لدينا تجارب من ثورة العشرين، ونعلم كيف تعامل الانجليز معنا، وما الذي ستؤول إليه الثورة. يجب أن نتحرك بحيطّة وحذر، لأن أدنى غفلة منا يمكن أن تؤدي إلى إذلال المسمين أو إبادتهم، وأرى نفسى مسؤولاً عن ذلك، وقد حققنا فى بعض القضايا، فلم نجدها كما تبين وتقول !

السيد الخميني : وانا بدورى لم أقدم على ما أقدم عليه من دون فحص وتبّت ولدىّ وثائق دامغة.

السيد الحكيم : هل أعددت جواباً لله على هذه الدماء ؟

السيد الخميني : لماذا إذن نهض الإمام الحسين عليه السلام واستشهد هو ونخبة من أصحابه، أليس من أجل حفظ الإسلام ؟ فهل نعرض عليه بما تقول؟ فى هذه اللحظة بان الغضب على وجه آية الله الحكيم وقال بلهجة حادة أيها السيد ! هل تقارن نفسك بشخصية الإمام الحسين ؟ الإمام الحسين عليه السلام إمام مفترض الطاعة وهو عالم ومأمور من قبل الله سبحانه وتعالى، ثم لماذا لا تستشهد بموقف الإمام الحسن عليه السلام، كلما أردت أن تقوم بعمل أو تريق دماً تشيت بالإمام الحسين عليه السلام. إن إرافة قطرة دم واحدة لإنسان برىء فيها مسؤولية عظيمة أمام الله سبحانه وتعالى... وخيّم الصمت والسكون على جوّ اللقاء، ولم يتحدث السيد الخميني بعدها، ومرت لحظات نهض بعدها



السيد الخميني من مكانه ليغادر وشيعة السيد الحكيم إلى الباب.

استغرق هذا اللقاء الساخن حوالي عشرين دقيقة فقط وخلال هذا الوقت حضر أيضاً السيد يوسف الحكيم نجل الإمام الحكيم الأكبر وبعض من أولاد السيد الحكيم وحاشيته.<sup>(١)</sup>

من ناحية أخرى، كان السيد الحكيم ينوء بضغطات الحكومة الطائفية في العراق والتي كانت تتسلط على أكتاف العراقيين وحوزة النجف، خاصة بعد مجيء البعثيين الأمر الذي جعل آية الله الحكيم يفكر بأنه غير قادر على القتال على جبهتين.<sup>(٢)</sup> وإن الأفضل أن يكتفى بالتأييد القلبي للنهضة الإصلاحية وإن كانت لا تجدى عملياً، كما أنها مرفوضة من قبل الطلاب الإيرانيين وبعض العراقيين من أصحاب النزعة الثورية. علماً بأن الطلبة الإيرانيين المساندين لتوجه السيد الخميني كانوا يشكلون أقلية في النجف، بحيث أنه بعد وفاة آية الله الحكيم توزعت الحوزة على مرجعية السيد الخوئي والسيد الشاهرودي، ولم تكن للسيد الخميني حصة تذكر، حيث أن حوزة النجف لم تتعاطف أصلاً مع التوجهات الثورية لآية الله الخميني.<sup>(٣)</sup>

وقد ورد في بعض التقارير فيما يتعلق بمواقف آية الله الحكيم المناوئة للسلطة البعثية، أن المرحوم السيد مصطفى الخميني قصد بيت الإمام الحكيم وهمس في أذنه قائلاً إن أسلوبك هذا في المعارضة ينبغي أن يتبدل، لأنه

(١) نهاية اللقاء حسب مذكرات السيد السامعي الموجودة في الموقع الإلكتروني: [WWW.HISTORYLIB.COM](http://WWW.HISTORYLIB.COM)

(٢) خانم يزدي : ١٨٨

(٣) شير، حسن : ٤٢١٢ .

بشكله الحالي يصبّ في صالح الحكومة الإيرانية، وهذا غير مقبول.<sup>(١)</sup>

### تفسير الإيرانيين من العراق

قلنا ان المشاعر الطائفية في العراق تأججت أكثر فأكثر خلال الحقبة البعثية، وزاد الطين بلة ان النزاع الشيعي - السني في العراق اكتسب لونا آخر هو النزاع بين العرب والفرس. ثم ان النظام العالمي الجديد حينها جعل من العراق ممثلاً عن روسيا، وإيران ممثلة عن أمريكا في الحروب والمنازعات التي تحصل في المنطقة. أضف إلى ذلك الأطماع التوسعية لدى البعثيين باحتلال جزء من أراضي إيران ما أثار موجة من الخلافات الواسعة والعميقة والتي راحت تشكل كل يوم بزيّ جديد؛ فتارة هي نزاع قومي وأخرى مذهبي وثالثة من اجل قطعة أرض.

وأحد معالم هذا النزاع، أو قل النقطة التي يمكن ان يستفيد منها البعثيون في إظهار مقدرتهم هي العمل على طرد الإيرانيين المستوطنين في العراق أو الإيرانيين المستعربين الذين لم يحصلوا بعد على الجنسية العراقية.

وبغض النظر عما سلف، ثمة تحليل أعمق لعمليات التهجير هذه، ذلك ان حزب البعث كان يهدف من هذا الإجراء إلى تقويض أركان الحوزة العلمية في النجف والتي تشكل كما قلنا آنفاً أحد الخطرين الرئيسيين الذين يواجهان مستقبل البعث (بالإضافة إلى الخطر الثاني وهم الأكراد).

(١) آية الله الكلبايكاني في وثائق السافاك : ٣٠٥١٢.

ولما كان الإيرانيون يشكلون القاعدة الأكبر لهذه الحوزة، فإن تفسير أعداد هائلة منهم، يؤدي إلى تضعيف الحوزة وإمكانية السيطرة على موضوع المرجعية فيها.

كان آية الله الحكيم في زيارة الأربعين بكرهلاء المقدسة عندما بلغه خبر تفسير الدفعة الأولى من الإيرانيين عام ١٩٦٩ م، فكأن اللطة استغلت غياب آية الله الحكيم عن النجف لتقدم على هذا الإجراء. ولم يلبث السيد الحكيم أن قفل راجعاً إلى النجف مما تسبب في هدوء نسبي للأوضاع وأفرج عن المعتقلين.<sup>(١)</sup> وفي ذلك الوقت أثرت قضية أخرى هي المعاملة السيئة للزوار الإيرانيين، وقد بادرت الحكومة الإيرانية التي كانت على خلاف مع حكومة العراق إلى نشر هذه الأخبار.<sup>(٢)</sup>

لم تكن مواقف علماء قم حيال هذه الأحداث موحدة، وبالذات آية الله الكلبايكاني الذي يجيل النظر كثيراً في هذا الموضوع الحساس خشية أن تستثمر

(١) سامي ، عشرون سنة من تاريخ الحوزة : ٤٧٩-٤٨١

(٢) في غضون ذلك بعث السيد محمد الشيرازي الذي كان يقيم في كرهلاء برسالة إلى المراجع في إيران كذب فيها الأخبار المنشورة في وسائل الإعلام الإيرانية ، وقال ان علماء العراق يتباحثون الآن مع الحكومة العراقية لأجل تجاوز الخلافات على أسس إسلامية وان حكومة العراق تستجيب (انظر آية الله الكلبايكاني في وثائق السالهاك ، ١٨٢١٢).

وبعد أيام ذكر شهود عيان أنهم شاهدوا المعاملة السيئة بحق الزوار الإيرانيين ، وبالتالي فالأخبار صحيحة؛ وورد في الصفحة الأخيرة من التقرير ان تدخل آية الله الحكيم أسفر عن ترك الزوار وشأنهم ، إلا أن السلطة في العراق واصلت سياساتها التصفية تجاه الإيرانيين المقبمين في العراق ولكن علماء إيران في ذلك الوقت كانوا ينظرون إلى هذه التقارير نظرة شك وريبة . بتصور أنها من تدبير نظام الشاه لفرص الاستفادة من الطمأنينة في النزاع بين الحكومتين ولكن الوقائع اللاحقة أثبتت وقوع هذه الأعمال بالفعل بغض النظر عن هدف الشاه من نشرها .

حكومة الشاه تداعياته لمصلحتها، فيما كان لآخرين موقف معترض عبّروا عنه من خلال برقيات أرسلوها إلى آية الله الحكيم.

وعقيب وفاة السيد محسن الحكيم، بادر البعثيون إلى معاودة عمليات التسفير، وذلك قبل ان تظهر للملا مرجعية قوية جديدة. وقد توجت عمليات التسفير هذه عقوداً من الجدل السياسي حول وضعية الإيرانيين المقيمين في العراق، والذين امتنعت الحكومات العراقية عن منحهم الجنسية العراقية حتى لو استوطنوا العراق لعدة أجيال.

بدأت حملات التسفير على نطاق واسع في شتاء ١٩٧١ م وعلى نحو صاحبه أوضاع مأساوية للغاية، وتنامت بسرعة أعداد (المعاودين) وهو اللقب الذي أطلق في إيران على أفواج المسفرين التي تراكمت على الحدود بين البلدين أو تم إسكان بعضهم مؤقتاً في المدن الحدودية الإيرانية. وقد شكّل طلاب الحوزة العلمية في النجف قسماً كبيراً من هذه الكتل البشرية الملقاة على الحدود. والذين لم يمهلوا سوى بضعة أيام لترتيب أوضاعهم قبل مغادرة البلد، وإلا فسيكون من الممكن اعتقالهم من أي مكان ورميهم على الحدود الإيرانية دون سابق إنذار.

أدى هذا التطور إلى نوع من المواجهة بين مراجع التقليد في إيران والنجف من جهة وبين الحكومة العراقية من جهة أخرى، وقد شمل هذا التحول في المواقف بعض القوى الثورية التي أعادت النظر في علاقاتها مع الحكومة العراقية التي كانت ترفع لواء الدفاع عن القوى الثورية المضطهدة. وقد أعلن الإمام الخميني احتجاجه على إجراءات السلطة العراقية عبر الخطب والرسائل

والبيانات الصادرة بهذا الشأن.<sup>(١)</sup> ويقال ان الإمام بعث بجوازه لأجل الحصول على تأشيرة خروج من العراق أسوة بباقي الناس الذين شملهم هذا الإجراء التعسفي ما حدا بالسلطة إلى إيقاف عمليات التسفير ولو مؤقتاً.<sup>(٢)</sup>

أما في داخل إيران، فلقد كانت حملات الاحتجاج ضد الحكومة العراقية أكثر حدة وصراحة. ففي بيان صادر عن آية الله صدوقى وصف الحكومة العراقية بـ (الذئاب البعثية) التي شرّدت العلماء الأعلام والمواطنين الإيرانيين المقيمين في الأماكن المقدسة.<sup>(٣)</sup>

ويدعى السيد خاتم اليزدى ان النظام العراقي استطاع كسب موافقة آية الله الخوئي على إجراءات التسفير. والظاهر أن الحكومة البعثية وصلت إلى مبتغاهما هذا عبر الحيلة والخدع.<sup>(٤)</sup>

ان معظم المسفرين كانوا من أهالي كربلاء والنجف والكاظمية وبالتالي فإن حصة الطلبة الإيرانيين بينهم كانت كبيرة جداً. ولقد تمّ هذا العمل بقسوة بالغة ودون تمييز بين طالب العلم وغيره.<sup>(٥)</sup>

وعادت فصول قصة التهجير من جديد عام ١٩٧٥ م واستهدفت هذه المرة

(١) اقرأ النص الكامل لها في أحمدى . ص ١٠٦-١٦٦ . حيث أشيد بهذا الموقف من الإمام واعتبر دليلاً على وطنيته وعدم سماحه للأجانب باستغلال الخلاف بينه وبين حكومة بلده (آية الله الكلبايكاني في وثائق السافاك . ٢٥٧١٢).

(٢) انظر : مذكرات آل إسحق (طهران . المركز الوثائقي . ٢٠٠٦ . ص ١٤٣) حيث توجد تفاصيل كثيرة بهذا الشأن

(٣) انظر : الشهيد آية الله الحاج الشيخ محمد صدوقى في وثائق السافاك . ص ٢٩

(٤) خاتم يزدي ١٠٨ . ولمزيد من البيان : خاطرات آل اسحق ١٨٧-١٨٨ .

(٥) انظر : محتشمي . المذكرات السياسية : ١٥٠١٢-١٥٤ .

العلماء والمجتهدين من الطراز الثاني، وبعض هؤلاء كآية الله التبريزي<sup>(١)</sup> أصبح لاحقاً من مراجع التقليد الكبار في قم، واستمرت عمليات التفسير والتهجير هذه إلى أيام الثورة الإسلامية في إيران وما بعدها.

وفيما يخص الغالبية من هؤلاء المسفرين لابد من الإشارة إلى نقطة مهمة، وهي أن الكثير من هؤلاء ليست لديهم جنسية عراقية، وثمة دلائل على هويتهم الإيرانية. والكثير من هؤلاء لا يجيدون الفارسية ويتحدثون باللغة العربية. وفي ظل ذلك تدخل آية الله السيد محمود الشاهرودي لدى القنصلية الإيرانية وكان يعطى الواحد منهم ورقة تأييد لكي يبرزها أمام القنصلية ويتوجه بمجرد وصوله إلى إيران إلى دوائر الجنسية للحصول على الوثائق الرسمية التي تثبت هويته الإيرانية.<sup>(٢)</sup> ان تعامل العراقيين مع الإيرانيين في هذه المرحلة شكّل واحدة من أكثر أنواع التعامل قسوة وظلماً بحق أناس استوطنوا العراق على مدى أجيال وأسهموا بشكل فاعل في بنائه واعماره، وهم الآن يغادرون البلد خالي الوفاض.

### تأسيس حزب الدعوة وبروز الشيعة في العراق

مع تنامي القدرة السياسية للشيعة في عهد آية الله الحكيم، وظهور الشيعة كقوة اقتصادية كبيرة، تولدت في أذهانهم طموحات بأن يكون لهم دور في الحكم. ولم يكن هذا الطموح قريب المنال مع تشتت الشيعة وضعف تجربتهم السياسية وحرمانهم المتعدد الأشكال والصور والذي تواطأت عليه الحكومات

(١) انتقل إلى رحمة الباري أيام ترجمة الكتاب

(٢) سامي : ٧٤ .

المتعاقبة في العراق، حتى شاع في العراق المثل القائل (للسنة الحكيم وللشيعة اللطم).

وفي محاولة فهم لجبران هذا النقص تبلورت بين الأوساط النخبوية الشيعية فكرة تشكيل حزب الدعوة الذي كان يقوده رجال دين متنورون يغلّسب عليهم طابع التفكير الأسمى، وفي مقدمتهم السيد محمد باقر الصدر والسيد مرتضى العسكري والسيد مهدي الحكيم ومحمد صادق القاموسي والسيد محمد باقر الحكيم وآخرون.<sup>(١)</sup>

وجاء تأسيس الحزب بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م بشهور، وقيل قبلها بشهور.<sup>(٢)</sup> وقد كان تأسيس الحزب بمعونة من آباء آية الله الحكيم، السيد مهدي والسيد محمد باقر من تلامذة محمد باقر الصدر مع وجوه بارزة أخرى من بين رجال الدين. ففي منزل آية الله الحكيم في كربلاء - وبغيابه طبعاً - اجتمعت عدة شخصيات هم محمد باقر الصدر ومحمد باقر الحكيم ومرتضى العسكري ومحمد مهدي الحكيم وطالب الرفاعي ومحمد صادق القاموسي وعبد الصاحب دخيل<sup>(٣)</sup> ومحمد صالح الأديب.<sup>(٤)</sup>

ومن ثم انخرط في صفوف الحزب جيل آخر من النخب الحوزوية والجامعية

(١) الخرسان ٥٤

(٢) شهر، حسن: ٢١٨١١

(٣) من أوائل شهداء حزب الدعوة اعتقل عام ١٩٧١ م، وانقطعت أخباره سوى ما عرف بان جسمه أذيب في حوض الثراب، وهو من بني رولة من فروع قبيلة عنزة وله أصول عربية بدوية (شبر/ حسن: ٦٧١٢).

(٤) الخرسان: ٦٤.

منهم محمد بحر العلوم وعدنان البكاء وعبد الهادي الفضلي وحسن شبر ومحمد علي التسخيري وغيرهم. وما لبث الحزب ان كوّن لنفسه قاعدة واسعة في المناطق ذات الغالبية الشيعية (وسط وجنوب العراق).

حين بلغ السيد الحكيم أبناء تشكيل الحزب أبدى معارضته لأن يقترن هذا الحزب بالحوزة. جراء ذلك قرر السيد محمد باقر الصدر الانسحاب من الحزب عام ١٩٦٠ م وكان الصدر من الداعمين لمرجعية آية الله الحكيم وان كان يتلمذ على يد السيد الخوئي.<sup>(١)</sup>

من بعد ذلك تحول محمد باقر الصدر إلى مرشد روعي للحزب تاركاً مكانه في الحزب إلى السيد مرتضى العسكري الذي انتخب اميناً عاماً له، وتمكن عام ١٩٦٥ م حين افتتاح كلية اصول الدين في بغداد.

يذكر ان السيد محمد باقر الصدر كان يمثل امتداداً لمرجعية آية الله الحكيم، وهذا يفسر اهتمامه بالشأن السياسي، وقد ألف كتابه الشهير (فلسفتنا) على أساس توصية من آية الله الحكيم وذلك لمواجهة المذ الشيوعي الذي اكتسح الوسط الشيعي أكثر من اكتساحه للوسط السنّي.<sup>(٢)</sup>

ولقد أبدى البعثيون اهتماماً بهذا الكتاب وطبعوه باستثناء فصل الاشتراكية لأنه لا يتوافق مع توجهاتهم. ويقال أنه كان هناك خلاف وقتها بين آل الصدر والسيد الخوئي، وقد سعى البعثيون لتعميق هذا الخلاف. وقد نشر وزير المعارف

(١) شبر، حسن، ٢٩٦١-٢٩٧.

(٢) الخراسان، ٩٨.



وقتها عبد الستار الجوارى كتاباً بهذا القصد.

على صعيد حزب الدعوة، لم تكن فكرة الوطنية والانتماء للعراق مطروحة، وذلك ان التوجه السائد هو التوجه الأمي المنادي بوحدة الأمة الإسلامية، مع تأكيد ان حزب الدعوة يسمو فوق الاعتبارات الطائفية. ولهذا كانوا في الحزب يفكرون في فتح فروع له في أفغانستان ودول أخرى.

وقد اختير عبد الهادي الفضلي ليكون ممثل الحزب في السعودية، وهو الآن الممثل المطلق لآية الله الخامني فيها.

لكن محمد باقر الصدر كان لديه نزعة عراقية ظاهرة، وكان يفكر بايجاد نوع من الاتحاد بين السنة والشيعة في هذا البلد؛ الأمر الذي ظهر جلياً في رسائله وبياناته المنشورة.<sup>(١)</sup>

كان تأسيس دولة اسلامية احد الأهداف المنظورة لحزب الدعوة الإسلامية وقد قرر الشهيد لصدر هذا المطلب من الناحية الفقهية النظرية.<sup>(٢)</sup>

ينحدر الشهيد الصدر من أسرة معروفة، وهو من خيرة تلامذة السيد الخوئي، وان كان متهمكاً في العمل مع الجهاز المرجعي للسيد الحكيم. وبعد وفاة آية الله الحكيم أيد الصدر مرجعية الخوئي لفترة من الزمن، ولكنه ما لبث ان اصدر رسالته العملية واعلن نفسه مرجعاً أعلم. وهذا ما ادى إلى تعكير الأجواء بين اسرتي الخوئي والصدر.

(١) العائري، سيد كاظم، مباحث الأصول، ج ١، ق ٢، ص ١٥٢.

(٢) الخراسان: ٩٤.

أما حزب الدعوة فكان يصدد الترويج لمرجعية السيد الصدر وتشجيع بعض الطلبة الجامعيين على الانخراط في صفوف الحوزة لأجل الانطلاق بنهضة جديدة، غير ان السلطة البعثية احبطت هذه المساعي، وكانت الخطوة الاولى في ذلك الضغط على آية الله الخوئي لقطع رواتب هذا الصنف من الطلاب، وفي الوقت ذاته تلقى آية الله الصدر توصية بمنع الطلاب من دخول التنظيم الحزبي. ومن ثم بدأت حملات الاعتقال في صفوف حزب الدعوة مما عرقل توجه الحزب نحو تعريب الحوزة، علماً ان السيد الصدر أبقى على علاقته بالحزب بصورة خفية، والى ذلك الوقت لم يكن للسيد الصدر صلة برجال الدين الثوريين الإيرانيين، ولم تسجل له مواقف معينة في تأييد خطوات الإمام. ولم يقترب من الحالة الثورية الإيرانية إلا مع بلوغ الأحداث في إيران قمتهما وبالتزامن مع تسريع حزب الدعوة لمراحل العمل ضد حكومة البعث، وهذا يؤكد من أسلفناه قبل قليل من ان السيد الصدر كرس جلّ اهتمامه للتعاطي مع مجريات الأحداث في العراق.

مما لا شك فيه ان تقييم حركة السيد الصدر يجب ان تتم في ضوء التيار الحوزوي الذي حمل على أكتافه مهمة تعريب الأوضاع في الحوزة. كان الشهيد الصدر يعطي دروسه بالعربية تأسيساً بآية اله الحكيم الذي ظلّ الوحيد الذي يلقى دروس الخارج باللغة العربية. مضافاً إلى أن حزب الدعوة كان يدعم بقوة مسألة تعريب الحوزة، بقبول احد طلاب النجف بهذا الشأن : إلى ما قبل مرجعية السيد الحكيم والسيد الصدر كانت الهوية العربية لحوزة النجف شبه غائبة.

وكان الطلاب العرب الوافدون إلى الحوزة لا يحملون من الطموح أكثر من رغبتهم في لبس العمامة وتعلّم قراءة المراثي الحسينية والمدائح النبوية، وكان هذا ظاهراً جداً من طريقة ارتدائهم للعمائم، بحيث كنا نعرف من أين جاءوا ولأى غرض. إن الطلبة ذوى الأصول العشائرية يأتون إلى النجف ويدخلون فيها دورات قصيرة لتعلم الخطابة ويعودون إلى مناطق سكناتهم. إلا أن السيد الحكيم وأولاده كانوا يخططون لما هو أبعد من ذلك، لقد كان هدفهم تكوين جيل من العلماء العراقيين، ولذلك فتحو مدرسة لهذا الغرض وادخلوا هؤلاء الطلبة في دورات طويلة ومكثفة تتجاوز أغراض الخطابة والوعظ ووفروا لهذا الدورات شروط النجاح والاستمرار، وكان لهم ما يريدون فقد تخرج منها طلاب كثيرون من أهل العلم، وراح الحضور العربي يفرض نفسه بقوة على الساحة النجفية، وإن كانوا أقل من الناحية العددية، لكن تأثيرهم كبير لأن الطلاب غير العرب عاكفون على الدرس لعدم قدرتهم على الاختلاط بالمجتمع بسبب حاجز اللغة. ومن العلماء الأفاضل العرب في تلك الفترة الشيخ حسين الحلي والشيخ عباس المظفر وغيرهم.

وكان لحزب الدعوة أيضاً دور فعال في إضفاء الطابع العربي على الحوزة، فالكثير من الطلاب انخرطوا في صفوف الحوزة بتشجيع من هذا الحزب والواقع أن موجة دخول الطلبة العرب والعراقيين إلى الحوزة وإن كانت تتم برعاية آية الله الحكيم وإشراف مباشر منه، إلا أن الجهد الميداني المبذول في هذا السياق يقع على عاتق حزب الدعوة، بما يتيح لنا القول أن مهمة تعريب حوزة النجف

ساهم فيها جهتان شخص آية الله الحكيم وحزب الدعوة.

بعد مرور أربع أو خمس سنوات أصبح المشهد السياسي في العراق أكثر سخونة، وقامت السلطة بملاحقة واعتقال العديد من الطلبة الناشطين ومداهمة المدارس التي تحتضن الطلاب المرتبطين بحزب الدعوة بشكل أو آخر. ومن بين تلك المدارس المدرسة الشبرية التي كانت مركزاً يرتاده الطلبة العراقيون.<sup>(١)</sup>

ويقال ان المدرسة المذكورة والتي كان يطلق عليها (الدورة) ارتبط اسمها باسم آية الله الحكيم، وكانت تدار من قبل حزب الدعوة.

تمة شخصية دينية أخرى كانت مواكبة للأحداث في النجف آنذاك ويقول : في أواخر مرجعية السيد الحكيم دخلت الحوزة حقبته العربية، حيث كانت فارسية قبل ذلك، الأمر الذي كان يخلق حاجزاً نفسياً بين الحوزة والمحيط الاجتماعي...

وكان للمرحوم آية الله الصدر دور فاعل في توجيه الحوزة وجهة عربية، وكان يصر على استقدام الشباب من بين شرائح المجتمع العراقي وتربيتهم حوزوياً لكي يتولوا مهمة إرشاد الناس، وكان افتتاح المدارس العربية خطوة عملية بهذا الاتجاه.<sup>(٢)</sup>

والتحول الآخر المهم على صعيد الحوزة هو المساعي التي بذلها آية الله الصدر لتجديد مناهج الحوزة بل تجديد الفكر الإسلامي والشيعي على مستوى

(١) المدى ٥٠.

(٢) الحائري ، سيد علي اكبر : ٦٥.

العراق. وقد كان الشهيد الصدر يمتلك المؤهلات اللازمة لانتشال الحوزة من واقعها الرتيب وتجهيزها بسلاح فكري جديد، الأمر الذي لم يكن يوسع التقليديين ولا في نيتهم القيام به. وهذا هو بالضبط ما حدا بالشباب العراقي على الالتفاف حول مرجعية السيد الصدر والتطلع إلى الحوزة والإعراض عن التيارات الإلحادية واليسارية. والحقيقة أن الشهيد الصدر هو الشخصية التي تمكنت من الوقوف بوجه التيارات الماركسية وتوجيه الأوساط الجامعية توجيهاً دينياً ظهرت آثاره في العراق كمرحلة أولى، ثم إن كتابي (فلسفتنا) و(اقتصادنا) طبعا ونشرا في إيران كذلك. وفي هذين الكتابين نجد فكراً أصيلاً وعمقاً انعكس على مدرسته وتلامذته الذين أسهموا في تأصيل هذا الفكر وتعميق آثاره، لكن البعض منهم سلك منهجاً متطرفاً بعض الشيء. والمفارقة أن المشهد العراقي الثقافي والسياسي شهد حراكاً من تيارات إسلامية أو يسارية أو بعثية.

وكلما نرى فكراً تليفياً من بين هذه التيارات. لكن بعض الشخصيات الدينية اتهمت لاحقاً حركات إسلامية بتبني أفكار تحريضية ضد الحوزة والمرجعية. وبالنسبة للشهيد الصدر نشير إلى أن عدم مؤازرته لتحركات آية الله الخميني بقوة حتى قبيل انتصار الثورة، لا يعني أنه كان بعيداً عنه من الناحية الفكرية أو من ناحية الحرص على التجديد في الفكر الشيعي، كما لا ننسى أنه يعدّ من أبرز وأول شهداء الثورة الإسلامية، بعد أن آمن السيد الصدر - مع إرهابات الثورة الإيرانية - بالإمام الخميني وبثورته العملاقة، إلى درجة أنه زهد بكل شيء ووقف بوجه الطاغية صدام ولم يُبد أي تنازل للسلطة إلى أن ضحى بنفسه دفاعاً

عن الثورة وقيادتها. في هذه الأثناء فإن بطش حزب البعث وإعدام أعداد غفيرة من أعضاء حزب الدعوة، تسبب في هروب باقى الأعضاء إلى خارج العراق وبالذات إيران وسوريا. وفي مرحلة من المراحل وقع الاختيار على السيد كاظم الحائرى من تلامذة الشهيد الصدر فقيهاً لحزب الدعوة. وكان الحائرى قد تتلمذ على آية الله الشاهرودى، وحين صار من أهل الفضل والعلم، عاد ودرس عند السيد محمد باقر الصدر.

ولم تدم العلاقة الحميمة بين الحائرى وحزب الدعوة طويلاً، بعد أن توصل الحزب إلى قناعة بعدم إمكانية ربط عجلة الحزب بقرارات شخص - حتى لو كان فقيهاً - وقرر الحزب أن يوكل البتّ في القضايا الهامة إلى شورى المكتب السياسى، وما لبث بعد ذلك أن أصدر السيد الحائرى كتاباً بعنوان (قرار الحذف) تعرض فيه لملايسات عزله عن الحزب. وفيما بعد استعاض حزب الدعوة عن الحائرى، بالسيد محمد حسين فضل الله الذى كان من الدعاة وهو الآن زعيم دينى فى لبنان.

وقد عرف حزب الدعوة باتخاذ مواقف مؤيدة لآراء السيد فضل الله ذات الطابع التجديدى المثير للجدل عند البعض.. هذا البعض الذى استمر يثير الإشكالات والشبهات حول علاقة حزب الدعوة بالمرجعية وطبيعة نظرته لها، وكان على أنصار الدعوة أن يبنوا كل مرة لدحض هذه التهم والشبهات.<sup>(١)</sup> حينما خرج السيد محمد باقر الحكيم من السجن، وقرر الهرب إلى سوريا،

انتدب حزب الدعوة السيد حسن شبر لمفاتيحة الحكيم بالمجيء إلى إيران، على اعتبار أنه من مؤسسي الحزب وله وجهة دينية واجتماعية في العراق.<sup>(١)</sup> وبمجرد وصوله إلى إيران عام ١٩٨٠ م حظي بتقدير واحترام الإمام، الأمر الذي مهد للإعلان تشكيل المجلس الأعلى في تشرين الأول من عام ١٩٨٢ في طهران، وبحضور ومشاركة عدد من التشكيلات والتنظيمات العراقية مثل حزب الدعوة ومنظمة العمل الإسلامي، اللذين انشقا لاحقاً عن المجلس.

وقد أنيطت رئاسة المجلس الأعلى لأربع دورات انتخابية بالسيد محمود الهاشمي أحد أبرز تلامذة الشهيد الصدر، فيما عين السيد علي أكبر الحائري رئيساً للمجلس لدورة واحدة فقط وهو أيضاً من طلاب السيد الصدر، إلى إن استقرت رئاسة المجلس في دورته السادسة علي السيد محمد باقر الحكيم.

لقد قطع السيد الحكيم على نفسه عهداً بالجهاد ضد نظام صدام، ووفى بعهده هذا على مدى أكثر من عشرين عاماً (١٩٨٠-٢٠٠٢).<sup>(٢)</sup> وفور سقوط النظام عاد إلى النجف، ولم يلبث فيها أكثر من ١٢ أسبوعاً حتى اغتيل عند مدخل الحضرة العلوية بعد إمامته لصلاة الجمعة داخل الحضرة واستشهد (رضوان الله عليه).

خلال ذلك، كان حزب الدعوة حاضراً في المجلس الأعلى وان

(١) الخرسان ٨٠.

(٢) نقل لنا صديقنا السيد الجعفرى عته (رض) أنه عندما جاء إلى إيران طلب من الإمام أن يحدد له تكليفه، إلا إن الإمام فوض إليه اتخاذ القرار بأمر الاستمرار في المعارضة لنظام صدام وكذلك شكل المعارضة إن كانت مسلحة أو لا، فعاهده على أن يواصل الجهاد ضد صدام ما دام حياً.

انفصل عنه في النهاية، ففي الدورة الأخيرة من عمر المجلس، تحرك حزب الدعوة بطريقة أثارت حفيظة بعض رجال الدين العراقيين البارزين، على خلفية الاعتقاد بأن هذا الحزب متأثر بأفكار الإخوان المسلمين، ويعتبر نوعاً من الحركات التجديدية. وعوداً على عقد الخمسينيات، كان هناك بالإضافة إلى حزب الدعوة تشكيل آخر من رجال الدين أطلق على نفسه اسم (جماعة العلماء) الذين يادروا بإصدار مجلة (الأضواء) في ذي الحجة من سنة ١٣٧٩ ق.<sup>(١)</sup>

ولقد أورد شير أسماء (١٤) شخصية من جماعة العلماء منهم: الشيخ مرتضى آل ياسين والشيخ محمد رضا المظفر والشيخ حسن الجواهرى والشيخ محمد جواد آل راضى وآخرون.<sup>(٢)</sup>

أن كياسة هؤلاء الأشخاص ووجهاتهم جعلتهم محط ثقة وتأيد المرجعية العليا آنذاك متمثلة بأية الله الحكيم الذي أوضح في بعض رسائله انه يدعم جميع منشورات هذه الجماعة.<sup>(٣)</sup>

أولى المواقف السياسية لهذه الجماعة تمثلت في إدانة إقدام الحكومة الإيرانية على الاعتراف بإسرائيل.

(١) وهي مجلة تصدر مرة كل أسبوعين ، واستمرت في الصدور ما مجموعه إجمالاً أربعة أعوام . وكانت مقالاتها الافتتاحية تكتب تحت عنوان (رسالتنا) ويقلم السيد محمد باقر الصدر الذي كان صغيراً في العمر بالنسبة إلى سائر العلماء . ولهذا لا يذكر مع ذكرهم ، وكان هناك عمود يحمل عنوان (كلمتنا) يعرره السيد محمد حسين فضل الله شير ، حسن : ٢٤٣٦١

(٢) شير . حسن : ٢٤٤١١

(٣) شير . حسن : ٢٤٩١١ . من كتاب : الإمام الحكيم السيد محسن : ٧٠ .



## مرجعية آية الله الخوني

بعد وفاة آية الله السيد الحكيم، كان آية الله الشاهرودى من أعمدة الحوزة العلمية بلا شك، لكن مما لا شك فيه أيضاً أنه لم يكن مرجعاً عاماً للشيعة، بل هو واحد من مراجع تلك الحقبة التي تزايدت فيها الضغوط البعثية على الحوزة. في هذا السياق أبرق آية الله الكلبايكاني من قم إليه شاجباً ممارسات حزب البعث في تلك البرقية التي يقول فيها : لا شك أن الشعب العراقي المسلم الذي ذاق الأمرين من سياسات البعث متذمر للغاية من هذا النظام، وسوف يقوم هذا الشعب بتأديب هذا النظام - الذي لا يفكر إلا بالدمار والخراب والفتنة - وينهض من اجل حفظ وصيانة الأماكن المقدسة والمؤسسة الدينية.<sup>(١)</sup>

وكان السيد الكلبايكاني بصدد إرسال رسالة أخرى إلى رئيس الجمهورية العراقية في خريف عام ١٩٧٥ م مع شروع موجة جديدة من عمليات التهجير الإيرانيين من العراق ومضايقة الحوزة العلمية، لكن الظاهر ان الحكومة الإيرانية تدخلت للحؤول دون إرسال الرسالة.<sup>(٢)</sup>

وبوفاة آية الله الشاهرودى ثنيت الوسادة في حوزة النجف لآية الله الخوني، وذلك في ظروف يصفها - كما يروى عنه - بأنها أشبه بظروف قائد يستلم القيادة من آخر مهزوم !

في هذه الحقبة توزعت المرجعية على عدة مراجع، ولم تكن مرجعية السيد

(١) آية الله العظمى الكلبايكاني في وثائق السافاك : ٢٦٤١٣ .

(٢) نفس المصدر : ٣٣٢١٢-٣٣٢٣ .

الخوئي مطلقاً، خاصة على مستوى إيران التي برز فيها آية الله الخميني بسبب الأحداث التي رافقت النهضة العلمانية ضد الحكم الشاهنشاهي. لكن هذا لا يعني أن السيد الخوئي لم يكن له مؤيدون على الساحة الإيرانية خاصة بين أوساط المتدينين على النمط التقليدي الذين ظلوا يحتفظون في أنفسهم بمكانة خاصة للنجف وحوزتها.

وعلى الرغم من المشاكل القائمة، يمكن القول أنه بالقياس إلى آية الله الحكيم في العراق وآية الله الخميني في إيران، اختار آية الله الخوئي منهجية تعتمد الحذر والاحتياط إلى أبعد حد، حتى أنه لم تكن لديه القدرة على القيام بأي نشاط في الحقل السياسي.

وإذا أردنا معرفة المواقف السياسية لمرجعية النجف في هذه الحقبة، نجد أن الوضع كان يختلف من سنة لأخرى. ففي حين اتخذ آية الله الخوئي موقفاً داعماً من تحرك علماء الدين الإيرانيين عام ٦٢-٦٣ م في قسم بحيث صدرت عنه بيانات شديدة اللهجة، وصل في واحدة منها إلى حد تكفير الشاه وسميت بـ(الخطيرة).. نرى أن السيد الخوئي لم يتحمس كثيراً لفعاليات الإمام الخميني في النجف بعد نفى الأخير إليها، ومرّد ذلك إلى الخلافات التقليدية التي تحصل بين بيوتات المراجع والتي يغذيها ذوو المنافع والمآرب الأخرى.

هذا من الناحية السياسية والاجتماعية، أما من الناحية العلمية والاجتهادية فلا يختلف اثنان أن آية الله الخوئي كان صاحب السبق والريادة في هذا المجال خصوصاً بعد وفاة آية الله الشاهرودي عام ١٣٩٥ ق. والدليل القاطع على ذلك

الزحام الشديد في درسه للبحث الخارج الذي لا يقارن بدروس غيره من المراجع. وهذا الأزدحام في درسه ظاهرة فرضت نفسها حوزياً حتى قبل رحيل آية الله الحكيم، بحيث كان درس السيد الخوئي هو المعول عليه في تعيين أيام العطلة والدراسة الحوزوية. وقد استمرت هذه الوضعية من التفوق العلمي حتى بعد مجيء الإمام الخميني منفاه الاختياري في النجف.

يقول الحائري: كان لدرس السيد الخوئي رونق خاص وهو أهم دروس حوزة النجف على الإطلاق. غايتها أن السيد الخوئي كان يعمل بالتيقن بأعلى درجاتها، ولا يبدى أى ميل للتدخل في الشؤون السياسية... ولهذا فقد توجهت الأنظار صوب الشهيد الصدر.<sup>(١)</sup>

خلال تلك الأعوام، كانت علاقة الخوئي بالحكومة ايجابية نوعاً ما. وكان لرجال الدين الثوريين تصور مفاده أن السلطات العراقية دعمت مرجعية السيد الخوئي للحد من تأثير مرجعية آية الله الخميني، هذا في حال أصدر (١٤) عالماً من علماء النجف البارزين ومنهم السيد الصدر بياناً أعربوا فيه عن تأييدهم لمرجعية السيد الخوئي.<sup>(٢)</sup>

ولكن بصورة إجمالية، فإن ممارسات السلطة البعثية أدت إلى تضييق مرجعية السيد الخوئي بالقياس إلى ما كانت عليه المرجعية في زمان السيد الحكيم. ففيما مضى كان مسؤولو الدولة يأتون من بغداد إلى النجف للقاء آية الله الحكيم والتباحث معه بشأن القضايا العالقة، بينما أنيط هذا الأمر الآن بمحافظ

(١) الحائري: ٧٥

(٢) خاتم يزدي: ٩٨-٩٩.

النجف، والذي كان يتردد على المراجع ويفواصل زمنية طويلة. في غضون ذلك كانت عمليات التسفير والمضايقة قد قلّصت أعداد الطلاب في النجف إلى مستوى ملحوظ، خاصة بعد الثورة الإسلامية في إيران حيث باتت النجف تخلو من أبنائها يوماً بعد آخر بحيث كان عدد طلابها قبل موجة المضايقات والاعتقالات يربو على ١٣ ألف طالباً - حسب الحائري - بينما تراجع هذا العدد ووصل إلى اقل من ألف.<sup>(١)</sup>

طبعاً البعض يشكك في دقة هذه الأرقام ويرون أن حوزة النجف في أفضل حالاتها لم تحتضن أكثر من ثلاثة آلاف طالب علم.

وتكاد تقتصر أنشطة السيد الخوئي على مستوى علاقته بالدولة على أعداد قائمة بأسماء الطلبة الإيرانيين الذين يشعر بأن بقاؤهم في النجف ضروري لإدامة حياتها العلمية، ويتم إرسال هذه القائمة إلى الجهات المعنية في الحكومة العراقية من اجل تمديد اقاماتهم في العراق، وهو العمل ذاته الذي يقوم به آية الله السيد محمد باقر الصدر من اجل تحصيل موافقة الحكومة على هذا الطلب مع المن والأذى طبعاً. واستمر الوضع على هذا المنوال لسنوات شهدت هدوءاً نسبياً في العلاقات بين الدولة والمرجعية في العراق، تخلّل ذلك بعض المجاملات من قبيل برقية التهنئة والتأييد التي بعث بها الخوئي إلى الرئيس العراقي احمد حسن البكر بمناسبة تأميم النفط عام ١٩٧٢.<sup>(٢)</sup>

أن الفتور الموجود بين أسرتي الصدر والخوئي كان سبباً وراء قيام كل واحد

(١) الحائري ٧٥

(٢) فياض الحسيني : ٩٧ .

منهما بتقديم قائمة مغايرة للقائمة التي يقدمها الآخر، وكانت الحكومة تعزف على وتر الخلاف فتقوم أحيانا بالمصادقة على إحدى القائمتين ورفض الأخرى، وبعد إرسال برقية التهنية المشار إليها أعلاه تطور الفتور إلى توتر حمل الصدرين على النهج على بيت الخوئي والعدول عن تقليده. لكن برقية مماثلة صدرت عن الشهيد الصدر حول مشروع محو الأمية الذي وصفه بالخطوة المباركة في بيان نشرته مجلة (ألف باء) ما أدى إلى تخفيف حدة التوتر في العلاقة مع الدولة. وعلى أي حال، فإن المكر والدسيسة البعثية نجحتا في خلق نوع من التنافس بين الأسرتين استمر حتى أيام هجرة الإمام إلى باريس.

تواجد آية الله الخميني في حوزة النجف للفترة بين ١٩٦٥-١٩٧٨ م وكان اغلب مقلديه في إيران، وأصبح له دور مؤثر في الحوزة بفضل الإمكانيات المادية التي يتمتع بها، لكن هذا الدور لم يرق بالطبع إلى مستوى تأثير السيد الخوئي في النجف.

آنذاك كانت حكومة البعث مهتمة بإنشاء جبهة معارضة للنظام البهلوي في إيران، ولذلك فسحت بعض المجال لمعارضى الشاه للعمل السياسى. مع ذلك فإن آية الله الخمينى لم يحسن الظن يوماً بنوايا البعثيين ولم يكن يجاريهم فى أى من مخططاتهم. وقد أثبتت الوقائع صحة تكهناته، فبمجرد أن طرأ تحسن فى العلاقات بين إيران والعراق بعد اتفاقية ١٩٧٥ م، ومع تنامى موجة الغضب الشعبى ضد الشاه فى إيران، أجبرت الحكومة العراقية آية الله الخمينى على مغادرة العراق. فيما يتعلق بإيران نفسها لابد من الإشارة إلى نقطة مهمة، ففى

خضم الأحداث الساخنة للأعوام ١٩٦٢-١٩٦٥ م حيث انطلقت المعارضة من قم لنظام الشاه وممارساته، كان آية الله الخوئي في مقدمة المراجع الإيرانيين في الدفاع عن هذا التحرك من خلال إصدار بيانات شديدة اللهجة ضد نظام الشاه. ولكن مع حلول العالم ١٩٦٨ ومجيء حكومة البعث إلى السلطة في العراق بدأ الكثيرون بمراجعة مواقفهم المتشددة ضد نظام الشاه، وكان شعوراً عاماً ساد الأوساط المرجعية حينها بأن الخطر البعثي يحتم عليهم تأجيل المعركة مع الشاه. ويفضى هذا التبدل في المواقف وجود نوع من التنافس بين الأسر العلمية في النجف، ما خلق تصوراً لدى رجال الدين الثوريين في بدايات الثورة بأن آية الله الخوئي غير مستعد لتأييد أي تحرك علماني أو نهضة شعبية ضد الشاه.

مع انطلاق الثورة الإيرانية، أقدمت السلطة البعثية في العراق على جملة إجراءات تعسفية من عمليات قمع واعتقال لعناصر حزب الدعوة، خشية أن يتكرر في العراق حدث مماثل لما حصل في إيران. وتفاقمت الأحداث إلى درجة أن الأوضاع في النجف الاشراف خيم عليها صمت رهيب. وطوال الحرب ضد إيران لم يتحدث آية الله الخوئي بأي حديث ينتقد فيه إيران. يقولون ان وقدأ من علماء السنة قصد النجف بعد مرور عام على الحرب وطلب من السيد الخوئي التدخل لإيقاف الحرب تمسكاً بمفاد الآية (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) ولكن آية الله الخوئي ردّ على الوفد بأن قرار الحرب لم يصدر عنه حتى يأمر بإيقافها، وانه يفضل عدم التدخل في مثل هذه الأمور. ورغم إبعاد ونفي الكثير من الطلبة والعلماء، بقي في النجف وجوه غير قليلة من

الطلاب والعلماء، كما أن الحكومة لم تكن تريد المجازفة بسمعتها في أوساط العرب الشيعة في المنطقة. استمر السيد الخوئي على هذا الوضع إلى حين وفاته عام ١٩٩٢/٨/٨ م، وقبل ذلك كان قد قام بآخر محاولاته لترتيب أوضاع البيت الشيعي بعد انتفاضة شعبان ١٩٩١ م حيث سقطت المدن الوسطى والجنوبية بأيدي الثوار الشيعة وانهارت اجهزة الأمن والشرطة والخدمات مما اضطر السيد الخوئي إلى التدخل وتأسيس هيئة لتمشية أمور الناس خلال تلك الفترة.<sup>(١)</sup>

ومع عودة الأوضاع إلى سابق عهدها، بات وضع النجف وخيماً للغاية بعد مقتل الكثير من العلماء، وعاش السيد الخوئي آخر أيام حياته في ضيق شديد نتيجة مضاعفة السلطة لضغوطها عليه وعلى الحوزة حتى توفاه الله فدفن مظلوماً.

### البعث وفكرة إيجاد مرجعية عربية

في السنين الأولى لوصول البعث إلى السلطة وتماشياً مع سياسة الحزب العامة المتطلعة إلى القضاء على الحوزة حرص البعثيون على عدم ولادة مشروع مرجعية عربية. ولكن فيما بعد توصلت الحكومة إلى قناعة بأن مرجعية عربية هي أفضل السبل لتقليم أظافر الإيرانيين في الحوزة وجعلها تسير في فلك

(١) تشكلت هذه اللجنة من الذوات: السيد معي الدين الفريفي (توفي النجف)، السيد محمد رضا الموسوي الغلخالي (استشهد)، السيد جعفر بحر العلوم (استشهد)، السيد عز الدين بحر العلوم (استشهد)، السيد محمد رضا الخراسان (حي يرزق) السيد محمد الزوارى (توفي في قم)، الشيخ محمد رضا نيب الساعدي (حي يرزق)، السيد محمد تقى الخوئي (استشهد)، والسيد محمد صالح الخراسان الذي انضم اليهم لاحقاً. (انظر: النجف الاشراف / اسهامات في الحضارة، ج ٢، ص ٣٩٠-٣٩٨).

السلطة. ولذلك حاول حزب البعث أن يروج لمرجع عربي في مقابل المرجع الفارسي، وكان من بين الأهداف المهمة للبعث أن تحوّل الحوزة إلى مؤسسة عراقية. وهذه النقطة هي التي أشار إليها لاحقاً السيد السيستاني في لقاء أجرى معه وأكد فيه أن السلطة لم تنجح في مسعاها هذا.<sup>(١)</sup> والواقع ان حزب البعث ظلّ عاجزاً عن إدراك حقيقة أن المرجعية بطبيعتها تكوينها تأتي أن تتلون بألوان عرقية وعنصرية، ذلك إن أصل مشروعيتها يُستمد من جذور وأسس دينية ومذهبية، وواضح إن الدين والمذهب لا يمكن أن يحتكر من قبل قومية أو عرق معين. وهذا هو الخطأ الاستراتيجي الفاضح الذي ارتكبه البعثيون في تقييم واقع الحوزة.

بالطبع، لم يقتصر هدف البعثيين على تعريب المرجعية، بل كانوا يتطلعون إلى السيطرة على مسار الحوزة وظاهرة التقليد والمقلدين. وحتى ذلك الوقت كانت الحوزة - رغم الخلافات العرقية والقومية - قائمة على مبدأ التفاضل في العلم والتقوى يقودها آية الله الخوئي الذي يتمتع بمكانة مرموقة في الأوساط العلمية. وإن كان يتعرض لانتقادات كثيرة من أصحاب النزعة الثورية.

وقد مرّ أنه أواخر عقد الخمسينيات من القرن الماضي نضج الوعي السياسي لدى العرب الشيعة في العراق بحيث راحوا يتطلعون إلى استرجاع مكانتهم الطبيعية في المجتمع والدولة، وأوجدوا حزب الدعوة كتشكيل سياسي يعينهم على تحقيق هذا الهدف.. وطبعاً لم يكن الدعاة يعولون كثيراً على مرجعية آية الله



الخوئي في تحقيق طموحاتهم، وذلك نظراً للمنهج التقليدي والذي اعتمده  
مرجعية السيد الخوئي في التعاطي مع الشأن السياسي والاجتماعي العام، الذي لا  
ينسجم مع التوجه التجديدي لهذه النخبة من الرجال الذين سرعان ما اصطدموا  
بالبعثيين الذين كانوا يقدمون للحوزة دعماً مالياً مقابل فرض الصمت على  
الحوزة.

وقد ألمحنا آنفاً أن السيد الخوئي بعث برسالة تهنئة إلى احمد حسن البكر  
على خلفية اتخاذ قرار التأميم، وهذا مما ثار استياء حزب الدعوة، رغم أن السيد  
محمد باقر الصدر أرسل ببرقية مماثلة إلى الحكومة مهنئاً إياها على إصدار قرار  
محو الأمية، فيما يمكن أن يعدّ نوعاً من المجاملة الظاهرية للحكومة لكف  
شروطها عن الحوزة والمرجعية، وإلا فإن الشهيد الصدر اتخذ أقوى المواقف  
المعارضة للسلطة البعثية إبان انتصار الثورة الإسلامية في إيران، وقدم روحه  
دفاعاً عن الثورة وقائدها الإمام الخميني.

الهدف أو الطموح الآخر الذي كان يتطلع إليه البعثيون من تعريب المرجعية  
هو تعبيد الطريق امام وصول شخص موال للسلطة إلى مقام المرجعية، وقد ذهبوا  
بادئ ذي بدء إلى آية الله السيد محمد علي الحمامي وأبلغوه استعدادهم لتبني  
مرجعيته والترويج لهذه المرجعية بشكل خفي، لكنه رفض العرض، رغم أنهم  
أجبروه على المشاركة في احد المؤتمرات العربية لتأييد السلطة، الأمر الذي كان  
كافياً لاتهامه بأنه من أعوان السلطة، في حين اشتهر الشيخ علي كاشف الغطاء  
بموالاته للحكومة.

بعد اليأس من الحماسي، توجهت السلطة إلى آية الله السيد حسين بحر العلوم، وقام الرجل بطبع رسالة عملية، إلا أنه أعرض عن الاستمرار بموضوع المرجعية.

في غضون ذلك، كان هناك عالم نجفي آخر يستقطب الاهتمام ألا وهو السيد محمد الصدر من تلامذة السيد محمد باقر الصدر. ومعروف عن آل الصدر منذ اختيارهم النجف موطناً أنهم أسرة دينية متواضعة همّها كسب العلم والتقوى، ولهذا لم تكن لهم نجاحات تذكر في حقل السياسة. ولكن بعد وفاة آية الله الحكيم بفترة، أقدم السيد محمد باقر الصدر على طبع رسالة عملية معلناً بذلك تصديّه للمرجعية وكان قبل ذلك من مؤيدي مرجعية السيد الخوئي التي ظلت مرجعيته مهيمنة على الأوساط العلمية والشعبية، ولم يتفاعل مع مرجعية الصدر سوى شريحة محدودة من رجال الدين المتنورين الذي ذهبوا بعيداً فأعلنوا إن الصدر أعلم من الخوئي. وتعدّ هذه أول مرجعية لآل الصدر والتي انتهت باستشهاده عام ١٩٨٠ م. بالطبع برز من هذه الأسرة علماء كبار طاولوا المرجعية ينحو وآخر منهم السيد إسماعيل الصدر والسيد صدر الدين الصدر.

فيما بعد، جاء دور مرجعية السيد محمد الصدر الذي عرف بتقواه وطهارته. وادعى أشخاص بأنه الأعلم. ويدلّ على اعتقاده الاعلمية طبعه لرسالة عملية على ضوء العرف السائد في الحوزة. وبالتالي بات السيد محمد الصدر في وضع يغري السلطة البعثية بالتحرك عليه لتنفيذ المخطط الذي ظلّ يدور في رأسها منذ زمن. ويروي شخص حضر مجلساً في بيت السيد الصدر في منطقة (الحنانة)

أقيم بمناسبة وفاة الزهراء عليها السلام أن زهاء خمسين شخصاً من أصحاب العمائم الخضراء - خدام الحضرة العلوية - مع شخصين آخرين هما الشيخ حسين الصغير والسيد يوسف الواحدى، أعلنوا بيعتهم للسيد الصدر على المرجعية العليا، وأنهم يريدون أن تكون هناك حوزة عربية، وقد أجابهم السيد الصدر قائلاً: (أشكركم على حسن ظنكم وأسأل الله أن أكون عند حسن ظنكم) ومن هنا بدأت مسيرة المرجعية للسيد محمد الصدر.

الظروف كانت معقدة، يصعب معها التحرك في مثل هذا المسار مع الأخذ بعين الاعتبار سوابق السلطة البعثية في التعامل مع علماء الحوزة، خاصة ما يتصل بشهادة آية الله السيد محمد باقر الصدر واخته بنت الهدى، والتي تجعل اقتحام هذا المضمار أمراً غير محسوب النتائج. وكان أولاد السيد محمد الصدر الثلاثة قد اقترنوا بيناب الشهيد محمد باقر الصدر.

وعلى أي حال، فقد كان السيد محمد لصدر يعتقد بأعلميته، ولذلك فور وجدانه للفرصة المناسبة أعلن مرجعيته التي كانت مورد تأييد السلطة العراقية إلى درجة ان السيد بنفسه صرح في لقاء مع مجلة الوسط انه يتلقى دعماً مالياً من الحكومة مقداره ثلاثة ملايين دينار عراقى في الشهر لتدبير شؤون مرجعيته والحوزة العلمية التابعة له. ولما كان السيد الصدر معروفاً ببساطته، كان من المستبعد ان يكون أقدم على هذا الأمر وفق خطة مدروسة يهدف من ورائها إلى مواجهة سياسات الدولة. وعندما حان الوقت وظهر أن الدولة تبغى من وراء دعمه أن تملى عليه بعض الأمور التي تنسق ونهج السلطة، بدأت بوادر الخلاف.

من جهة أخرى، فإن الاقبال الكبير على السيد محمد الصدر أوهمه بأن مرجعيته بلغت شأناً كبيراً. ففى ظل تأييد الدولة لمرجعته بلغ الأمر أحياناً أن الاذاعة الحكومية تعبر عن بالمرجع الدينى الأعلى<sup>(١)</sup>

ولكن بمجرد ان لمس البعثيون خطورة فى وضع السيد أقدموا على اغتياله ونجليه. فى هذه الاثناء لم يكن للمجاهدين العراقيين المتواجدين فى الخارج نظرة ايجابية تجاه السيد الصدر وتحركه، وكانوا يعرضون وثائق على تعاونه مع السلطة. وهذا الحكم يسرى على كل من مجاهدى حزب الدعوة والمجلس الاعلى. ونفس الموقف تقريباً اتخذ من قبل الجهات المعنية فى ايران.

والواقع انه بسبب تأييد الحكومة البعثية لمرجعته ووجود نقاط غامضة فيما يتعلق بدور مزعوم له فى اغتيال بعض مراجع النجف، لم يحظ تحركه باهتمام الحكومة الايرانية. وعلى الرغم من قيامه - قبل شهادته بثلاثة اشهر - بإرسال رسالة إلى الحكومة الايرانية بواسطة السيد جعفر نجل السيد محمد باقر الصدر ومطالبته فيها بفتح مكتب له، إلا ان الجهات المعنية فى ايران لم تستجب لهذا للطلب.<sup>(٢)</sup>

لقد كان السيد محمد الصدر يقسم المراجع والعماء إلى فريقين المرجعية الناطقة والمرجعية الصامتة، ويرى ان هذا التصنيف أساسى جداً ومهم من حيث الأثر والنتيجة.<sup>(٣)</sup>

(١) العائزى ٧٢

(٢) الجابري، العروج الأحمر ٣٨

(٣) انظر: رؤوف، عادل، مرجعية الميدان - ٣٢٣.

ومع اغتيال السيد محمد الصدر ونجليه، تنامت شعبيته بين الاوساط الشعبية في داخل العراق والتي لم يعد لها تصور واضح عن أوضاع المجاهدين في الخارج.

والتحليل العام الذي يتمسك به الكثير من محبيه انه في الوقت الذي كانت الحركات الإسلامية الثورية قد اعتمدت اسلوب الكفاح المسلح لمواجهة نظام صدام. فان السيد اتبع اسلوب الثقبية من خلال تعبئة الحشود الشعبية التي لا ترتبط بتلك الحركات، وذلك في محاولة لحفظ الوجود الشيعي.<sup>(١)</sup>

بعد اغتياله، تحول السيد محمد الصدر إلى رمز وتيار جماهيري، والكثير من الراقبين اعتبروه مرجعاً شهيداً خصوصاً اصحاب الحس العروبي، وهذه فرصة أتبحت بعد سقوط النظام لمؤيدي الصدر لكي يشكلوا لأنفسهم تياراً جماهيرياً عارماً.

في زمان صدام، اغتيل اثنان من المراجع هما آية العروى وآية الله البروجردى، وحامت الشكوك حول دور للتيار الصدري في ذلك، ولكن المرجح ان ذلك كان جزءاً من المكر البعثي للتخلص من المرجعية الفارسية، وفي الموقت ذاته خلق فتنة في حوزة النجف بين التيارات الموالية للمرجعيات المختلفة.

يقال ان ثمة فارقاً جوهرياً بين المرجعية الإيرانية والمرجعية العربية الصدرية في القدرة على التواصل مع الجماهير. ففيما مضى، كان الارتباط بين المرجعية

(١) انظر : لقاء السيد أكرم الحكيم في : الجارى ، ٨٠-٨٥ .

والناس ضعيفاً للغاية، وقلّما نرى مندوباً من الحوزة يذهب إلى المناطق العربية باستثناء بعض الخطباء والوعاظ المحليين. وحتى هؤلاء يشكلون ظاهرة جديدة استحدثت في زمان آية الله الحكيم. واستمر الوضع على المنوال ذاته أيام مرجعية السيد الخوئي، بل انه تقلصت كثيراً نتيجة تدخلات السلطة البعثية في شؤون الحوزة. وما أن وصل الدور في المرجعية إلى السيد محمد الصدر، ومع الدعم والحرية في العمل الذي كان يتمتع به على مستوى العمل المرجعي في العراق، فقد عمل على تقوية صلاته مع الجيل الواعد من الشباب العربي العراقي، وذلك عبر اطلاق مشروع صلاة الجمعة في شتى مدن العراق ؛ الأمر الذي ادى فيما بعد سقوط النظام إلى سيطرة الصدرين على منابر صلاة الجمعة.

ان اعمار بعض المدارس التي عطلت من قبل السلطة بسبب تنامي ضغوطها على الحوزة أو هجرة الطلبة الايرانيين والهنود وغيرهم، حول هذه المدارس تلقائياً إلى حوزة للسيد محمد الصدر، وقد ظلت في ايدي الصدرين إلى ما بعد سقوط النظام.

بشهادة السيد محمد الصدر، باتت الأرضية مناسبة لشيوع أفكاره، فالرجل قد استشهد وأعداؤه كثيرون والشباب العربي الشيعي على تواصل ووفاق مع خطه العام مضافاً إلى السمعة الطيبة التي يتمتع بها آل الصدر في الأوساط الشعبية نتيجة تضحياتهم المتواصلة.

لكن جميع هذه الأمور لم تزعزع من مكانة المرجعية الشيعية التقليدية المتمثلة في شخص آية الله السيد السيستاني، والسرف في ذلك ان العبادي

الأساسية للمرجعية (الأعلمية والتقوى) ما زالت هي المعيار الأول في مقام الاختيار. ناهيك عن الجهود والمساعى التي بذلت من اسرة الخوئي لتمهيد الطريق لمرجعية السيستاني.

مع ذلك كله، فإن من نتائج مرجعية السيد محمد الصدر، تربية جيل جديد من التلاميذ والفضلاء الشبعة العرب الذين ساهموا في تنامي قوة التيار حتى ان البعض منهم سارع إلى اعلان مرجعيته رغم ان عمرهم التحصيلي لم يتجاوز الـ (١٥) عاماً - وهي مدة قليلة في اعتبارات الحوزة - ومن هؤلاء يعقوبي<sup>(١)</sup> والصرخي<sup>(٢)</sup> اللذين لهما الآن أتباع ومريدون. ونظراً لنفوذ التيار الصدري في الاوساط الشعبية العربية، لقد تمكن من تشكيل احزاب بدأت تنشط الآن.

بنظرة عامة، فإن خط السيد محمد الصدر قد انقسم ما بين أتباع يعقوبي وأتباع السيد مقتدى نجل السيد الصدر. يعقوبي مثقف جامعي أنهى خدمته العسكرية أيام الحرب العراقية - الايرانية في وزارة الدفاع، ثم انخرط في صفوف الحوزة وسرعان ما اصبح مسؤولاً في مكتبه. وبعد شهادة الصدر مالت الشرائح الجامعية نحو يعقوبي، بينما اتجهت الحشود الشعبية نحو السيد مقتدى ليشكلوا لاحقاً (جيش المهدي).

ينبغي القول بصورة اجمالية ان مرجعية السيد الصدر لم تأخذ مدهانا إلا بعد

(١) يطلق عليه أتصاره الآن لقب (آية الله العظمى) وبعد المرشد الروحي لحزب الفضيلة الذي يحتل ثلاثة عشر مقعداً في مجلس النواب العراقي، ونفوق شعبيته شعبية الصرفي على نحو لا يحتمل المقارنة.

(٢) يقال ان هذا الرجل الذي يدعى الاجتهاد والمرجعية تخرج من جامعة بغداد كلية الهندسة المدنية عام

رحيل آية الله الخوئي عام ١٩٩٢ م حيث ظهرت بوادر تكون مرجعيتين، الأولى لأية الله السيد السيستاني الذي تعدّ مرجعيته امتداداً تقليدياً لمرجعية السيد الخوئي ومنطقة فاعليتها هي العراق والخليج وقسم من إيران وفي كل مكان كان فيه مقلّدون كثير للسيد الخوئي. واغلب هؤلاء من المتدينين التقليديين الذين واكبوا المرجعية منذ عقدين من الزمن. أما في الداخل العراقي فقد شهدت بوصلة التقليد اتجاهات أخرى كان أهمها مرجعية السيد محمد الصدر المدعومة من قبل السلطة، بحث أضحت الكثير من المراكز الحوزوية في النجف تدار بيد السيد الصدر الذي حاول إتباعه دون جدوى فتح مكاتب في إيران.

يقول الحائري بهذا الشأن :

(السيد محمد الصدر كان عربياً، وكان ذلك ذريعة مناسبة لتضعيف أي مرجع آخر. ومهما يكن من أمر فإن السيد الصدر تصدى للمرجعية... ومساندة الحكومة لمرجعيته وإن كانت بقصد اختراق مؤسسته المرجعية والتأثير على قرارات السيد الصدر، إلا أنه في المجموع العام كانت هذه الخطوة في مصلحة الحوزة والمدارس، لأن السيد الصدر استثمر المكانة التي حصل عليها في افتتاح الكثير من المدارس... واطلق مشروع صلاة الجمعة، وقام أيضاً بتنصيب قضاة شرع في بعض المحافظات... بالطبع تم تغيير أسماء المدارس التي أعاد افتتاحها السيد الصدر خاصة ما كان منها يحمل أسماء فارسية)<sup>(١)</sup>.

لكن مقتدى نجل السيد محمد الصدر يعتبر أن ما يشاع من كلام حول علاقة



مرجعية والده بالسلطة لا أساس له من الصحة، ولا ينفي ان والده كان له مطلق الحرية في اعمار مدارس النجف واعادة فتحها. واحدى أهم المؤسسات العلمية التي افتتحها الصدر (جامعة الصدر الدينية)، وكان الصدر حريصاً على تغيير اسماء المدارس من اسماء الأشخاص إلى اسماء الائمة.<sup>(١)</sup>

### ايران والعراق خلال العقود الثلاثة الأخيرة<sup>(٢)</sup>

على مدى ثماني سنوات من الحرب بين العراق وايران، بذل نظام البعث مساعي كبيرة لانتزاع فتوى من المرجعية في النجف الاشراف تدين ايران، ولكن دون جدوى.

قبل بدء الحرب وبغية ازاحة أى عقبة محتملة في الطريق اقدم نظام صدام على اعدام السيد محمد باقر الصدر واخته وشخصيات من قبيل السيد قاسم شير العالم المجتهد ذى التسعين عاماً وامام جمعة النعمانية وفي صيف نفس العام ١٩٨٠ م قام باعتقال عشرة آلاف شاب شيعي وأخفاهم إلى يومنا هذا. فى غضون ذلك هرب من العراق كل طلاب العلوم الدينية والشباب الرسالي الذى كان له أنشطة سياسية، وهاجروا إلى إيران ليبدأوا أسلوباً آخر فى الجهاد ضد السلطة.

لقد اتبع المجاهدون العراقيون أساليب متعددة فى الكفاح ضد الطغمة البعثية،

(١) لقاء مع مقتدى الصدر فى مجلة الحوزة . ١٦٤١٦٦

(٢) هذا البحث اقتبسته من صديقى الفاضل الدكتور محمد جعفرى الذى استفدت من مذكراته فى أماكن متفرقة من الكتاب .

فقد شكل بعضهم قوات فيلق بدر للقتال في جبهات الحرب، فيما اختار بعض آخر ممارسة فعالياته في إطار تشكيلات سياسية - إعلامية مثل حركة المجاهدين العراقيين والمجلس الاعلى للثورة الإسلامية في العراق، وهناك شريحة من العراقيين المهاجرين انخرطوا في صفوف الحوزة العلمية في قم المقدسة من اجل اكتساب العلوم الدينية ونشرها في صفوف المهاجرين العراقيين وهؤلاء أيضا كان يرتادون جبهات القتال بين حين وآخر لشدة أزر المجاهدين.

وبوقوع آلاف الجنود والضباط العراقيين أسرى بيد القوات الإيرانية خلال السنة الثانية من الحرب تهيأت لهؤلاء فرصة مناسبة لاتخاذ قرار حرج بشأن مصيرهم بعيداً عن قمع السلطة وإرهابها. ومع إقامة دورات تثقيفية في معسكرات الأسر قرر حوالي عشر آلاف أسير عراقي الالتحاق بصقوف قوات بدر فيما اختار نفر منهم الذهاب إلى الحوزة العلمية. وقد اقتصرن اغلب هؤلاء بزوجات إيرانية أو عراقية وكونوا أسرا وعوائل انتشرت في أرجاء إيران.

سنة ١٩٨٢ م تأسس المجلس الاعلى للثورة الإسلامية في العراق بقيادة جمع من العلماء المجاهدين مثل السيد محمود الهاشمي والسيد محمد باقر الحكيم والسيد محمد تقى المدرسى والسيد على الحائري والسيد كاظم الحائري والشيخ الأصفي ومن تشكيلات حزب الدعوة الإسلامية ومنظمة العمل الإسلامي وحركة المجاهدين وبعض القوى المؤتلفة حول السيد محمد باقر الحكيم. ومن أهم انجازات المجلس الأعلى تشكيل فيلق بدر الذي كان بمثابة الجناح العسكري للمجلس الذي يضم القوى العسكرية المختلفة في تشكيل واحد منظم

ومنسجم، ليكون له فيما بعد دور مهم في العراق.

عام ٢٠٠٢ م خرج حزب الدعوة ومنظمة العمل من خيمة المجلس الأعلى وبقي فيه فقط الأشخاص والكيانات الصغيرة التي تؤمن بزعامة السيد الحكيم. وقد عاد المجلس بعد سقوط النظام إلى العراق بمعينة فيلق بدر كأكبر قوة سياسية - عسكرية شيعية تعمل بإمرة السيد محمد باقر الحكيم.

أما حزب الدعوة ومنظمة العمل، فقد ظلّا محافظين على أسلوب عملهما الحزبي حتى وهما تشكيلان ضمن تشكيلات المجلس الأعلى على النحو الذي يستفيدان فيه من مزايا المجلس ومزايا الحفاظ على الهوية الخاصة بكل منهما.

وخلال ٢٣ سنة قضاها العراقيون الشيعة في إيران، تمكن زهاء خمسة آلاف طالب عراقي من الدراسة في الحوزة العلمية بقم المقدسة، فيما تلقى حوالي عشرين ألف عراقي تدريبات عسكرية في فيلق بدر ومستفيدين من تجربة الحرب العراقية - الإيرانية ومن الدورات التي ينظمها الحرس الثوري، بالإضافة إلى تأهيل كوادر سياسية وإعلامية وثقافية في صفوف الأحزاب والحركات.

ولقد استطاع هؤلاء الانتشار بسرعة في المحافظات والمدن والقصبات العراقية الأهلة بالسكان الشيعة والذين حرموا لسنوات طوال من رؤية رجل الدين و نشطت المساجد والحسينيات والمراكز الدينية والثقافية والمكتبات، وعملت هذه المراكز جميعاً على نشر الثقافة الدينية وتعميقها، على النحو الذي أعاد للنجف اشراقها بعد غياب طويل.

وعلى المستوى العسكري، ومن خلال توغله في المجتمع العراقي تمكن فيلق بدر من توسيع قاعدته الشعبية إلى أكثر من عشرة آلاف مقاتل تولوا مهمة مواجهة الحملات الإرهابية التي تستهدف الشيعة في وسط وجنوب العراق ولم تكن عزيمة هذا الفيلق وأبنائه الممارسات التعسفية التي أقدمت عليها القوات الأمريكية ضد كوادر الفيلق والتي بلغت حد الاعتقال والضرب والتنكيل. بل إن البعض منهم انخرط في صفوف الشرطة والجيش العراقي الجديد. لقد استطاعت الأحزاب العراقية العائدة من إيران إعادة ترتيب أوضاع العراق الجديد بدعم معنوي من المرجعية في النجف وإسناد لوجستي من قبل إيران، وذلك على الرغم من العقبات والعراقيل التي نجمت عن احتلال العراق. والشاهد على ذلك اجراء الانتخابات والاستفتاء على الدستور وتشكيل الحكومة والمجلس وتأهيل الجيش والشرطة.<sup>(١)</sup>

### عراق ما بعد صدام والمرجعية الشيعية

إن الظلم والممارسات اللا إنسانية التي طبعت سياسة البعث على مدى عقود ضد الشيعة والكرد وشرائع من العرب السنة، خلقت لأبناء الشعب العراقي وضعاً بحيث باتوا مستعدين للقيام بأي عمل للإطاحة بنظام صدام. دون أن يأبهوا بعواقب ذلك. لقد أصبح همهم الأساس بعد خمس وثلاثين سنة من الظلم والجور والتعسف هو إزاحة هذا الديكتاتور وحزبه البغيض عن الحكم

(١) إلى هنا ينتهي الاقتباس .

مهما كلف الأمر.

في هذا السياق لم يكن لل مرجعية الشيعية أى دخل، فالسيد السيستاني يعيش في داخل العراق ويخضع لرقابة مشددة وليس له أى نوع من الاتصال بالخارج، على أنه كان يتفادى الإقدام على أى عمل من شأنه مضاعفة الضغوط البعثية على الحوزة العلمية، ومن هنا فقد حرص على لزوم بيته لسنوات طوال، وبذلك ساهم في حفظ الحوزة العلمية في التجف من تقمة النظام.<sup>(١)</sup>

أما خارج العراق فقد سلكت الأحزاب والتنظيمات المعارضة للنظام من الشيعة والأكراد والسنة طريقاً آخر.

إن مجيء أمريكا إلى المنطقة مرده إلى دواع عديدة ؛ منها مشروع الشرق الأوسط الكبير، ومنها كبح جماح الإرهاب حيث يعتقدون - أو هكذا يدعون - ان الحكومة العراقية على صلة بتنظيم القاعدة، والداعى الثالث تأثير بعض المعارضين العراقيين أمثال احمد الجلبى على القرار الأمريكى وإقناعهم بدخول العراق، مضافاً إلى السبب المعلن وهو البحث عن أسلحة دمار شامل استخفافاً بعقول الشعوب.

وبقدر ما يتعلق الأمر بالعراقيين، فإن المعارضة العلمانية العراقية والبعثيين السابقين والأحزاب الكردية والشيوعية والعربية السنية، كانت لهم اجتماعات متواصلة للتخطيط للإطاحة بنظام صدام، وقد استثمروا الفرصة السانحة هذه في تحقيق حلمهم بالقضاء على نظام تسبب في قتل وإبادة ملايين العراقيين في

عضون ثلاثة عقود.

ولقد نجح هؤلاء في إقناع أمريكا بأن الإطاحة بصدام أمر سهل وان الشعب العراقي سيرحب بهذه الخطوة ؛ الأمر الذي صدقته الوقائع خلال الأشهر الأولى من سقوط النظام في (٢٠٠٣\١٩\٢٠). ولكن مع مرور الوقت، وبسبب الحماقات الأمريكية في حل المشاكل العالقة وتلكؤها في نقل السيادة إلى العراقيين وانتقال الإرهابيين إلى العراق من مختلف البلدان العربية (السنية) وباكستان والتأمر بين الدول العربية ممثلة بالسعودية واليمن والأردن والإمارات ضد العراق، كل هذه الأمور أسهمت في تأزيم الأوضاع في هذا البلد يوماً بعد يوم، ولا تنسى أيضاً إن المرجعية الشيعية لم تتدخل إلى الآن في ما يحصل في العراق، رغم ان الشيعة لم يخفوا سرورهم للإطاحة بالنظام.

ومن حين تشكيل مجلس الحكم، ونظراً لكون الشيعة أغلبية مطلقة بحسب كل الإحصائيات والأرقام فقد أصبح لهم وزن مؤثر في هذا المجلس. عندها راح السيد السيستاني يتدخل في بعض القضايا الراهنة، وذلك في ضوء ما يبدو له من ملاحظات محددة ومتواصلة بشأن قضايا هامة تطرح في مجلس الحكم من قبيل الانتخابات وكتابة الدستور والاستفتاء عليه وتشكيل الجمعية الوطنية وانتخاب رئيس الحكومة وأيضاً طريقة التعامل مع الاحتلال. وقد ارتكزت رؤى السيد السيستاني على المبادئ التالية

المبدأ الأول : إيمانه العميق بدور الشعب في تقرير مصير البلد في إطار عراق متحد. وكان أبرز تجلّي لهذا المبدأ في كتابة الدستور، حيث نعلم جميعاً إن

الأمريكان أرادوا اختيار جماعة لكتابة مسودة الدستور العراقي الدائم، أو أن يقوم بها نفس أعضاء مجلس الحكم الذي سبقت الإشارة إليه ومن أجل تمرير هذا المشروع جاءوا بالأخضر الإبراهيمي ممثلاً عن الأمم المتحدة في العراق والتقى السيد السيستاني. وكان جلّ تركيزهم على قضية مفادها إن الظروف غير ملائمة في الوقت الراهن لتنظيم انتخابات. ولكن السيد السيستاني رفض هذا الأمر بشدة، وأعلن بصراحة إن ممثلي الشعب العراقي هم فقط المخولون بوضع دستوره الدائم، ولا مشروعية لقيام مجلس الحكم بهذا الأمر المصيري.<sup>(١)</sup> وقد أجاب على سؤال بهذا الصدد بما نصّه :

(إن تلك السلطات لا تتمتع بأية صلاحية في تعيين أعضاء مجلس كتابة الدستور)، مشيراً إلى عدم وجود ضمانات بقدره هؤلاء على وضع دستور دائم منبثق عن الهوية الوطنية والدينية والأعراف والقسم الاجتماعية لهذا الشعب. وبالتالي فإن فكرة تعيين جماعة من قبل الأمريكان لوضع مسودة الدستور غير مقبولة من الأساس والحل الممكن الوحيد هو إجراء انتخابات عامة ينبثق عنها مجلس وطني يتولى مهمة كتابة الدستور.<sup>(٢)</sup>

لم يستجب الأمريكان لهذا الطلب في البداية، لكن إصرار السيد السيستاني على هذه القضية وتأكيده على عدم القبول بحلول بديلة،<sup>(٣)</sup> حملهم على الإذعان للأمر الواقع، ما ترك تأثيراً ملموساً على مواد الدستور الدائم.

(١) السيستاني : ٤٩

(٢) السيستاني : ٣١-٣٢

(٣) السيستاني : ٣٤.

المبدأ الثاني : وهو يرتبط بدوره كمرجع في القضايا الراهنة في العراق. ويعتقد السيد السيستاني بأن المرجعية لا ينبغي لها التدخل في الأمور التنفيذية والقضايا الجزئية، وجواباً على سؤال بهذا المجال قال : (المرجعية لا تمارس دوراً في السلطة والحكم).<sup>(١)</sup>

ولم يكن هذا الأمر ممكناً في العراق، بغض النظر عن رأيه بهذا الموضوع. ولهذا نجده يبدي رأيه في بعض المسائل ويجيب على بعض الاستفتاءات ذات الطابع السياسي نظير إجابته على سؤال بشأن رغبته في إيجاد دولة معادلة لإيران ونظامها الإسلامي في العراق، حيث أجاب كلا، ولكن نريد دولة تحترم أصل الدين الإسلامي وأحكامه الأساسية باعتباره دين الأكثرية الساحقة من المجتمع العراقي.<sup>(٢)</sup> وقد أوصى رجال الدين والطلاب بعدم زج أنفسهم في المجالات التنفيذية والإدارية، وليكنفوا بمهام التوجيه والإرشاد والإشراف على عمل المؤسسات التي تُعنى بإدارة شؤون المدن وحفظ الأمن وتوفير الخدمات العامة.<sup>(٣)</sup>

وقد حرص أكبر الحرص على عدم الاستفادة من نفوذه العام إلا بمقدار الضرورة وفي القضايا ذات الطابع المصيري حتى أنه تفادى كثيراً إبداء رأيه في اختيار الرجل الأكثر صلاحية لتولي منصب رئاسة الوزراء، تاركاً مثل هذه الأمور إلى صلاحية نواب الشعب وممثليه.

(١) السيستاني : ١٨

(٢) السيستاني : ٤٣

(٣) السيستاني : ١٢-١٦ .



وبالطبع، كان الشيء الأكثر أهمية وخطورة هو مسودة الدستور وكان يؤكد في هذا السياق على حق الشعب في تقرير مصيره، وان يأخذ كل مكون من مكونات الشعب العراقي حقه الطبيعي دون تمييز حسب المذهب أو العرق. وكانت آراء السيد السيستاني ووجهات نظره تجد طريقها إلى لجان كتابة الدستور. إن موقف السيستاني هذا دالّ على قناعته بان مهمة المرجع الديني الأعلى والذي يسمو بموقعه عن الاعتبارات الوطنية والقومية والفئوية، تفرض عليه التدخل في الخطوط العامة للنظام السياسي الحاكم في مجتمع يشكل المسلمون أغلبية ساحقة من أبنائه. ومن الطريف ان نعلم ان السيد السيستاني ورغم إقامته في العراق لأكثر من أربعين عاماً لم يتخلّ عن جنسيته الإيرانية وقد سافر إلى لندن بجواز سفر إيراني.

المبدأ الثالث : هو قناعة السيد السيستاني بالنظام العالمي في إطار هيئة الأمم المتحدة كمرجع في معالجة القضايا الخارجية، وبالديمقراطية كمرجع لمعالجة القضايا الداخلية عبر الانتخابات ومشاركة الشعب في تقرير المصير وانتهاء الاحتلال الأجنبي، ولهذا عارض أي تحرك عسكري أو أسلوب إرهابي أو ميليشياري لتحقيق الأهداف، وعمل جاهداً على تشكيل حكومة وطنية ومجلس نيابي مؤثر ممهداً بذلك الأرضية المناسبة لخروج القوات الأجنبية من العراق.

ومن الطبيعي ان يكون نفوذ السيد السيستاني مقتصرأ على الوسط الشيعي في العراق الذي يشكل نسبة ٦٤% من مجموع السكان، مضافاً إلى أن الشيعة عانوا

من الاضطهاد الشديد على مدى عقود وقدموا مئات الآلاف من الشهداء. وكان من الواضح إن ممارسة السيد لدوره القيادي على قاعدة إعطاء كل ذي حق حقه كفيل بتفوق الشيعة بحكم نتائج ومعطيات العملية الديمقراطية. وهذا هو مقتضى الحق الطبيعي الذي وجد الآخرون أنه لن يخدم مصالحهم، ولهذا فتحوا الباب على مصراعيه من أجل تحويل العراق إلى حاضنة لقوى الإرهاب وإغراقه في مستنقع من الدماء. مقابل ذلك استمر السيد السيستاني من خلال بياناته بالتعويل على الشعب العراقي ككل متفادياً الحديث بلغة السنة والشيعة تجنباً لإنارة المشاعر المذهبية، وخشية انجرار البلد إلى أتون فتنة طائفية. ومنذ الأيام الأولى صرح بحقيقة ما يتطلع إليه من خلق ظروف مناسبة لانبثاق حكومة من نفس الشعب تمثل جميع طوائفه وأطيافه.<sup>(١)</sup>

وحين سأله احد مراسلي رويتر عن هوية الدولة التي يتطلع السيستاني إلى إيجادها ؛ هل هي قومية أم إسلامية ؟

أجاب (إن شكل الحكومة الجديدة للعراق يعينها الشعب العراقي بجميع قوميته ومذاهبه وعبر الانتخابات الحرة).<sup>(٢)</sup>

ولهذا تمنى على الحكومة المستقبلية للعراق ان تدارى وضع الاكثرية وان تحترم دين الغالبية المطلقة من ابناء الشعب ولا تصادق على قوانين مخالفة له.<sup>(٣)</sup> وفيما يرتبط بالشيعة والسنة كان يدعو إلى التفاهم والتوافق بين الاثنین

(١) السيستاني ١٨

(٢) السيستاني : ٢٦

(٣) السيستاني : ٢٨ .

لحفظ المصالح العامة، وصرح قائلاً بهذا الشأن : (هناك ارتباط قائم مع إخواننا من أهل السنة من خلال اللقاءات المباشرة وغير المباشرة، وثمة تقارب في وجهات النظر تجاه القضايا المشتركة، وإن الحوار هو السبيل الأوحى لحلّ الاختلافات).<sup>(١)</sup>

وحينما بلغت الخلافات الطائفية أوجها بعد نفوذ الوهابية وأتباع القاعدة إلى العراق وتحالفهم مع فلول البعثيين والذي أسفر عن اقرار جريمة تفجير مرقدى الإمامين العسكريين عليهما السلام، ورغم كل الضغوط الشعبية باتجاه تأجيج الموقف والقيام برذ فعل عنيف، بقى السيد السيستاني ملتزماً بمبادئ الحوار والتفاهم وإيجاد عراق واحد ومستقل.

وحتى فيما يرتبط بالفيدرالية لم يكن يوافق عليها من وجهة نظره الشخصى، لكنه أعلن انه لن يعترض عليها إذا اختارها الشعب العراقي عبر آلية ديمقراطية. تلك قضية لطالما أكد عليها آية الله السيستاني في أحاديثه ولقاءاته وبياناته.

وطوال هذه المدة أكد على وجوب المحافظة على وحدة العراق أرضاً وشعباً وإن على السنة والشيعة العمل معاً من اجل الحفاظ على وحدتهم والدفاع عن نوابتهم الدينية والوطنية.<sup>(٢)</sup>

وحين تمادى الإرهابيون في أعمالهم الإجرامية وارتكبوا عمليات إبادة جماعية واستباحوا الدماء والأعراض، اتخذ موقفاً حازماً بوجههم، لكنه فى

(١) السيستاني ٥٢.

(٢) السيستاني : ٨٣.

الوقت نفسه ظلّ مصراً على ضرورة ان يكون الحل قانونياً وذلك من خلال تقوية الحكومة واجهزتها الأمنية والعسكرية لا عن طريق الميليشيات والجماعات المسلحة.<sup>(١)</sup>

وكان يذكر دائماً بمسؤولية قوات الاحتلال عن انهيار الوضع الأمني في العراق معتبراً إن الحلّ الأمثل يكمن في قوة الحكومة واستلامها الملف الأمني، كما اتخذ مواقف صريحة ضد التصرفات والتصريحات اللامسؤولة التي صدرت عن البعض نظير تصريحات حسني مبارك التي حذر فيها من خطر شيعي مزعوم.<sup>(٢)</sup>

المبدأ الرابع : ويختص بموقفه من الاحتلال، فلقد بين مكتب السيد السيستاني ان قوات التحالف - وحسب قرار مجلس الأمن - تعدّ قوة محتلة.<sup>(٣)</sup> وعندما سأله احد العراسلين عن رأيه بتصريح بول بريمر بأن القوات الأمريكية باقية في العراق حتى بعد تشكيل الحكومة، أجاب السيد السيستاني كيف يتوقعون منا أن نؤيد بقاء قوات الاحتلال؟!<sup>(٤)</sup>

الشيء المهم هو أن المرجعية الشيعية ورغم حضورها القاعلي في القضايا الراهنة في العراق، إلا إنها تجنّبت أي ارتباط مباشر مع الأمريكان وحلفائهم، وأعلنت بصراحة أنها تعارض وجودهم في العراق، وذلك في جواب على سؤال

(١) السيستاني : ١٤٢

(٢) السيستاني : ١٤٧

(٣) السيستاني : ٤٦

(٤) السيستاني : ٥٠

وجهته نيويورك تايمز بهذا الشأن.<sup>(١)</sup>

لقد وافق السيد السيستاني على لقاء مبعوث الأمم المتحدة إلى العراق سرجيو دي ميللو الذي قتل في عمل إرهابي، وبعث السيد رسالة تعزية بهذا الصدد إلى الأمين العام للأمم المتحدة.<sup>(٢)</sup>

لكن بالمقابل أحجم عن اجراء أي لقاء أو اتصال مع الحاكم الأمريكي في العراق بريمر على طول مدة مكوث الأخير في العراق. ما عدا تسلّم السيد السيستاني لرسالة جاء بها مندوب عن بريمر من دون أن يسمح له باللقاء شخصياً. ولكن بريمر كتب لاحقاً في مذكراته ان المرجعية الشيعية وبضمنها السيد السيستاني كانت تحت أتباعها على التعاون مع قوات التحالف، إلا ان منتدى الفكر العراقي كذب هذه الادعاءات، مؤكداً انه بقدر ما يتعلق الأمر بآية الله السيستاني فإنه لم يرفع أي توصية بالتعاون مع قوات التحالف، وان مشكلة بريمر تكمن في أنه لم يلتق بالمرجعية يوماً، ولهذا فهو يعتمد على السماع من هنا وهناك.<sup>(٣)</sup>

وفي موضع آخر من مذكراته، برر بريمر عدم لقائه شخصياً بالسيد السيستاني بأن مثل هذا الأمر لا يبدو مناسباً ومقبولاً بين أوساط المؤمنين. إلا إن بيان منتدى الفكر العراقي عزا هذا الأمر إلى موقف ميدني من قبل آية الله السيستاني الذي كان يرفض اللقاء بقيادات قوات التحالف، كونها قوات محتلة لا يجوز

(١) السيستاني : ١٧

(٢) السيستاني : ٥٤ .

(٣) انظر : تعليقات منتدى الفكر العراقي على مزاعم بريمر فيما يتعلق بآية الله السيستاني . السيستاني : ٤٢٦ .

التعامل معها إلا أن اقتضت الضرورة ذلك.<sup>(١)</sup>

لقد أورد بريمر في مواضع عديدة من كتابه، نقاط اختلاف متعددة بين الرؤى الأمريكية ورؤى آية الله السيد السيستاني، وهي نقطة جديرة بالاهتمام.<sup>(٢)</sup> هذا، وقد كذب بيان منتدى الفكر العراقي جميع مزاعم بريمر بشأن وجود مراسلات بينه وبين آية الله السيستاني، متحدين بريمر أن يعرض دليلاً ملموساً على ذلك، ومنوهين بأن أبواب مكتب آية الله السيستاني ظلت مفتوحة دائماً بوجه مختلف الشخصيات التي يمكن ان يكون لها دور مؤثر في حل المشكلة العراقية باستثناء قادة التحالف طبعاً.<sup>(٣)</sup>

الأهم من ذلك، أنه على مدى الأعوام الماضية بعث الرئيس الأمريكي بوش برسالتين إلى آية الله السيستاني لكنه لم يجب على أي منهما. وذات مرة أبلغ احد المسؤولين العراقيين تحية من السيستاني إلى بوش، لكن مكتب السيد السيستاني نشر تكذيباً لهذا المدعى. وحين ذهب السيد إلى لندن لغرض العلاج بعث رئيس الوزراء البريطاني توني بليير برسالة إليه، إلا ان هذه الرسالة ظلت كسابقاتها بدون جواب، واستناداً إلى ما ذكره، لا ينبغي الشك في أن المرجعية الشيعية أعرضت عن الاتصال بزعامات التحالف بأي نحو من انحاء الاتصال،

(١) نفس المصدر ص ٤٢١-٤٢٢ ، وفي هامش هذا الكلام ، جرى تكذيب ما ذكره كينغ في الواشنطن بوست من أن السيد السيستاني لا يلتقي بغير المسلمين، وأن عدم لقائه بريمر وسائر مسؤولي التحالف يأتي في هذا السياق ، والدليل على كذب هذا الادعاء ان السيد سبق وأن التقى ببعوث الأمم المتحدة إلى بغداد سرجيو دي ميللو وغيره من مسؤولي الأمم المتحدة وهم من غير المسلمين في الغالب .

(٢) نفس المصدر ٢٢٣-٢٢٤ .

(٣) السيستاني : ٤٢٥ .

ولكنها في الوقت ذاته لم تؤمن باللجوء إلى القوة في التعامل مع الحلفاء. وحينما انتهجت بعض التيارات منهج الكفاح المسلح ضد الأمريكان لم تحظ بتأييد ومباركة السيد السيستاني. واثناء أحداث النجف، حث كانت هناك خشية من هجوم الأمريكان على الصدريين ومحاصرتهم عسكرياً بغية القضاء عليهم أو توجيه ضربة موجعة، كان مفتاح الحل لهذه المشكلة المعقدة بيد آية الله السيستاني الذي قطع سفرته للعلاج في لندن وعاد إلى النجف وتدخل لحل الأزمة بشكل مشرف. إن المسار الذي ارتأته المرجعية الشيعية في النجف حيال مشكلة الاحتلال، هو العمل على إيجاد عراق مستقل دستوري وتهيئة الأجواء لخروج القوات الأجنبية بشكل طبيعي، وعندما استفتى السيد السيستاني بشأن الدعوات التي انطلقت من بعض منابر الجمعة داعية إلى مقاومة المحتلين، بين وجهة نظره القائمة على خيار المقاومة السلمية لأجل التسريع بعملية استرجاع السيادة وتهيئة الأوضاع لانسحاب هادئ للقوات الأجنبية.<sup>(١)</sup>

في غضون السنتين الأوليين بعد سقوط النظام حيث الأوضاع أكثر هدوءاً، كان السيد السيستاني - بالإضافة إلى كونه مرجعاً أعلى للشيعية - يلعب دور الشخصية البارزة في العراق التي هي محط احترام واهتمام الجميع. وقد التقى به البارزاني والبايجي والكثير من رموز العراق الجديد لأجل التشاور والتفاهم معه في القضايا ذات الطابع المصري.

ولكن على مستوى حوزة النجف كان هناك ثلاثة مراجع تقليد آخرون، وهم

: آية الله السيد محمد سعيد الحكيم وآية الله الشيخ محمد إسحاق الفياض وآية الله الشيخ بشير النجفي. وعلى طول المدة كان المرجع المطلق والمطاع هو آية الله السيستاني، وكان المراجع الآخرون يرجعون إليه في مهمات المسائل، ولم يظهر أي مؤشر على وجود خلاف بين هؤلاء. حتى السيد كاظم الحائري كان يرجع إليه في القضايا المصرية، وهذا الأمر من مقتضيات الأدب المرجعي المعمول به في النجف، مضافاً إلى إيمان هؤلاء بخبرة وحكمة السيد السيستاني ودرايته.

يذكر أن الحقبة الصدامية شهدت من الظلم والتكيل بحق الحوزة وأبنائها ما أدى إلى تفرقها من طاقاتها ورموزها ما عدا ثلة قليلة حسب ما ورد في كتابات آية الله السيستاني.<sup>(١)</sup>

ولكن الهدوء النسبي في أوضاع النجف للفترة ما بعد سقوط صدام مباشرة وعودة الكثير من رجال الدين المهاجرين من سوريا وإيران، هيأ الأرضية لوثبة جديدة للحوزة كان مقدراً أن تعيد مكانتها الريادية للشيعنة في العالم لولا الاضطرابات التي شهدتها العراق لاحقاً وانسحبت على النجف نفسها فتأثرت بها كثيراً حركة الازدهار العلمي والثقافي.

من جهتها، أوصت قيادة الجمهورية الإسلامية ومراجع التقليد في إيران أكثر من مرة، بإتباع توجيهات آية الله السيستاني بشأن الأوضاع في العراق، وكانت آراؤه ومواقفه موضع تقدير وتأييد الجهات المعنية في إيران سواء على مستوى



القيادة أو على مستوى الحكومة التي لم تألُ جهداً في التنسيق مع المرجعية العليا في النجف في جميع القضايا ذات الاهتمام المشترك. ولدى توجه السيد السيستاني إلى لندن لغرض العلاج، نشرت بعض الصحف الإيرانية تحليلات غير مسؤولة، سرعان ما تم احتواؤها والتراجع عنها. هذا في حال أن المناخ العام في إيران حانق على الوضع في العراق، ولولا الثقة المطلقة بمرجعية آية الله السيستاني وتوصيات قائد الثورة الإسلامية لكان من الصعب تقبل موقف المرجعية تجاه ما يجري هناك.

لقد مرت ثلاث سنوات حتى الآن، والعراق تحول فيها إلى حمامات دم لا يراد لها أن تجف، وكل ذلك نتيجة السياسات الهوجاء للأمريكان والتدخل الشامل من قبل الدول العربية في شؤون العراق، والهدف من كل ذلك إرجاع الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل سقوط نظام صدام من هيمنة الأقلية والتي لم تنتج إلا عقوداً من القهر والعذاب والقمع ضد الشيعة والأكراد. إن استمرار هذه الفتن وتعميقها أسهم في خلط الأوراق على نحو لم يعد بمقدور أي كان السيطرة على مسارات الأحداث، وتحول العراق إلى ساحة لتصفية الحسابات نتيجة تدخل الأجنبي وتآمر كل من لا يريد لشعب العراق أن يختار نمط حياته كما يريد وعبر الآليات الديمقراطية المقبولة.

لقد أصدر آية الله السيستاني مؤخراً بياناً بشأن النزاعات الطائفية في العراق طالب فيه جميع الأحزاب والتجمعات والعشائر بوضع حدّ لتزيف الدماء وإدراك خطورة الأوضاع التي يعيشها البلد.

ويرى آية الله السيستاني ان السبيل الأوحيد لحل هذه الأزمة هو الكفّ عن المعارك الطائفية ومراعاة تكافؤ الفرص لجميع المواطنين العراقيين في تقرير مصير بلدهم.<sup>(١)</sup> وهو يعتقد إن النزاعات الجارية الآن لا تعبر عن صراع مذهبي بين السنة والشيعة، بل هو شقاق سياسي تغذّيه الجماعات التكفيرية التي لها أهدافها الخاصة.<sup>(٢)</sup>

صفوة القول إن آية الله السيستاني بمنهج العقلاني في التعاطي مع الوقائع ومراقبته للأحداث عن كثب سعياً للتأثير عليها من الصميم، لم يتوقف عند دور المرجع الأعلى للشيعة، بل تعدّاه إلى رمز مؤثر في عالم السياسة الدولية. إن المعطيات التي أفرزتها هذه القيادة على صعيد الوسط الشيعي الداخلي وعلى صعيد علاقة هذا الوسط بمحيطه الخارجي، كانت كبيرة وكثيرة، إلى درجة يمكن استثمارها بشكل أفضل؛ الأمر الذي لم يتحقق. والمشكلة في ذلك لا تتعلق بالمرجعية، بقدر ما تتعلق بالوسط الشيعي نفسه وقياداته التي ينبغي لها العمل على تهيئة الظروف أفضل لاستثمار هذه المعطيات، لكي يتسنى للشيعة الخروج من عنق الزجاجة (واقع الأقلية) إلى فضاء رحب يتيح لهم دور أكبر على الصعيد المحلي والإقليمي والعالمي.

(١) السيستاني : ١٥٤-١٥٥ (رسالة للشعب العراقي حول الفتنة الطائفية) .

(٢) السيستاني . ١٦٢ .

## مصادر الكتاب

- ١ - آقا بزرك الطهرانى، الكرام البررة فى القرن الثالث بعد العشرة، تعليقات السيد عبد العزيز الطباطبائى، مشهد، دار المرتضى، ١٤٠٤ هـ
- ٢ - آل محبوبة، شيخ باقر، ماضى النجف وحاضرها، بغداد، مطبعة الآداب، ١٩٥٨.
- ٣ - آية الله العظمى السيد محمد رضا الكبايكانى به روايت اسناد ساواك، طهران، (فارسى).
- ٤ - احمدى، على، اخراج ايرانيان از عراق، طهران، مركز اسناد انقلاب اسلامى، ١٣٨٥، (فارسى).
- ٥ - الفت، محمد باقر، كتج زرى بود در اين خاكدان، اصفهان، ١٣٨٤ ش، (فارسى).
- ٦ - بطاطو، حنا، ال، طهران، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت، ١٩٩٠.
- ٧ - الياى، حامد، مقالة (المرجعية الدينية ودورها القيادى، السيد محسن الحكيم نموذجاً)، دار كتاب النجف الاشرف، اسهامات فى الحضارة الإسلامية ج ١، لندن، ٢٠٠٠.
- ٨ - الجابرى، سيد على، عروج سرخ، نظرى كذار بر زيندىكى ومبارزات شهيد سيد محمد صدر، قم، ١٣٨٢، (فارسى).
- ٩ - الجبورى، كامل سلمان، السيد محمد كاظم اليزدى، قم، مكتبة ذوى القربى، ٢٠٠٦.

- ۱۰ - الجبوري، كامل سلمان، شيخ الشريعة، قيادته في الثورة العراقية الكبرى ۱۹۲۰ ووثائقه السياسية، ۲۰۰۵.
- ۱۱ - الحائري، عبد الهادي، تشيع ومشروطية وتقسيم ايرانيان مقيم عراق، ۱۳۶۴ ش. (فارسي).
- ۱۲ - الحائري، سيد علي اكبر، مصاحبة با عنوان (حوزة نجف، تلاش ها ومظلوميت ها) مجلة حوزة، سال ۴، ش ۱۶، صص ۶۳ - ۸۰. (فارسي).
- ۱۳ - الحيدري، ابراهيم فصيح بن السيد صبغة الحيدري البغدادي (م ۱۸۸۲)، عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد، لندن، دار الحكمة، ۱۹۹۸
- ۱۴ - خاتم يزدي، خاطرات آيت الله، طهران، مركز اسناد انقلاب اسلامي، ۱۳۸۱. (فارسي).
- ۱۵ - الخرسان، صلاح، حزب الدعوة الإسلامية حقائق ووثائق، دمشق، ۱۹۹۹.
- ۱۶ - الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم، بغداد، ۱۹۶۳ م.
- ۱۷ - درينكل، سليم، با عنوان (مبارزة با تشيع در عراق در دوران عبد الحميد دوم) ترجمة نصر الله صالحى، مجلة نامه، قم، شماره ۲، تابستان ۱۳۸۴ ش. (فارسي).
- ۱۸ - رؤوف، عادل، مرجعية الميدان، قم، ۲۰۰۱.
- ۱۹ - الساعدي، حمود، دراسات عن عشائر العراق، بغداد، مكتبة النهضة، ۱۹۸۸.
- ۲۰ - سامي، شيخ محمد، خاطرات، طهران، مركز اسناد انقلاب اسلامي، ۱۳۸۵ (فارسي).
- ۲۱ - سامي، شيخ محمد، بيست سال تازيخ حوزة علمية نجف، قم، ۱۳۷۷. (فارسي).
- ۲۲ - سيلدت، موسى، تاريخ جغرافيايي عرب خوزستان، طهران، ۱۳۷۲. (فارسي).
- ۲۳ - السيستاني، آية الله العظمى، النصوص الصادرة، اعداد حامد الخفاف،

- بيروت، دار المؤرخ العربي، ٢٠٠٧.
- ٢٤ - شير، جسن، حزب الدعوة الإسلامية، ١٩٥٧ - ١٩٨٠، قم، مكتبة الامام الصادق عليه السلام، ١٤٢٧.
- ٢٥ - الشمراني، محمد علي، صراع الاضداد، لندن، دار الحكمة، ٢٠٠٣ م.
- ٢٦ - علم وجهاد، حياة آية الله العظمى محمد هادي الميلاني، قم ١٤٢٧ هـ.
- ٢٧ - العلوي، حسن، الشيعة والدولة القومية في العراق ١٩١٤ - ١٩٩٠، لندن ١٩٩٠.
- ٢٨ - فاضل، البراك، المدارس اليهودية والايرائية في العراق، بغداد ١٩٨٤.
- ٢٩ - فب مار، تاريخ نوين عراق، ترجمة محمد عباسبور، مشهد، ١٣٨٠، (فارسي).
- ٣٠ - فياض الحسيني، هاشم، لمحات من حياة الامام المجدد السيد الخوئي، بيروت، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٠.
- ٣١ - الكاظمي، محمد صالح، احسن الأثر فيمن أدركناه في القرن الرابع عشر، بغداد، مكتبة النجاح، ١٩٤٣.
- ٣٢ - كوهستاني، مسعود، جالشها وتعاملات ايران وعراق در نيمه نخست قرن بيستم، (بر اساس اسناد وزارت خارجه) طهران، وزارت خارجه، ١٢٨٤ (فارسي).
- ٣٣ - مددي، سيد احمد، مصاحبه، مجلة حوزة، سال ٤، شماره ١٦، صص ٣٩ - ٦٢، (فارسي).
- ٣٤ - منظور الاجداد، سيد حسين، مرجعيت در عرصه اجتماع وسياست، طهران، شيرازه، ١٣٧٩، (فارسي).
- ٣٥ - النقاش، اسحاق، شيعة العراق، ترجمة عبد الاله التميمي، بيروت وسورية، ١٩٩٦ م.
- ٣٦ - الوردى، على، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٣، بغداد، ١٩٧٢.